دروس من سيرة الرسول الأكرم ﷺ

سلسلة المعارف الإسلامية

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

مركز نون
للتأليف والترجمة

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٤٧١٠٧٠/ ٠١ ـ ص.ب. ٥٣/ ٢٤ . ٣٢٧/ ٢٥

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الكتاب :دروس من سيرة الرسول الأكرم ﷺ

إعداد :مركز نون للتأليف و الترجمة

نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الطبعة الثالثة كانون الثاني 2007م-1426هـ

جميع الحقوق محفوظة ©

دروس من
سيرة الرسول الأكرم ﷺ

مركز نون للتأليف والترجمة
الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

بسم الله
الرحمن
الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين.

يمثّل رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ النموذج الانساني الكامل الذي اجتمعت في شخصيته كل الصفات والخصائص والقيم الانسانية والالهية، فهو رجل العلم والفضل والعقل والكمال، ومثال الحكمة والوقار والجلال، عارف حكيم تقي شجاع حازم. وهو الرجل المعصوم من الخطأ المبرء من الزلل، أكمل الخلق وأفضلهم وأعظمهم أخلاقاً لا ترى في أعماله أي خلل أو ضعف، ولا في تصرفاته وسلوكه أي تشتت أو تناقض.

وقد اتسع قلبه لآلام الناس ومشكلاتهم، فجاهد في الله حق جهاده، ووقف بحزم وثبات وقوة في وجه القوى الجاهلية، الوثنية واليهودية، من أجل العدالة والحرية والمحبة والرحمة، ومن أجل مستقبل أفضل لجميع الناس.

ولأجل ذلك فقد جعله الله قدوة وأسوة للناس جميعاً، وفرض عليهم أن يقتدوا به وأن يتبعوه في كل شيء حتى في جزئيات أفعالهم فقال تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**﴾[1].

ولذلك أيضاً فقد حظيت شخصية رسول الله ﷺ وكذلك حياته وسيرته باهتمام التاريخ والمؤرخين والباحثين، وأُلفت حول شخصيته وسيرته العطرة مئات بل آلاف الكتب والدراسات ولا نعلم سيرة رجل قد نُقّحت وحُققت ومُحصت بالحجم الذي تم لسيرة رسول الله ﷺ.

ولم يكتف تاريخ الاسلام المدون بتسجيل الأحداث والمواقف العامة من حياة النبي ﷺ

---

(١) الأحزاب ـ ٢١.

بل سجل لنا تفاصيل حياته ودقائق تصرفاته حتى الحركات واللفتات واللمحات، فضلاً عن الكلمات والمواقف والحوادث بدقة متناهية واستيعاب لا نظير له.

وبالرغم من كثرة ما كتب حول السيرة النبوية عرضاً وتحليلاً إلاّ أن المكتبة الاسلامية والمعاهد الثقافية ظلت تفتقر الى كتاب ممنهج في السيرة والتاريخ يمكن الاعتماد عليه في تقديم صورة واضحة ونقية عن حياة وسيرة النبي ﷺ لكل طلاب المعرفة.

ومن هنا فقد قمنا بوضع هذا الكتاب (السيرة والتاريخ) ليسد هذه الحاجة الماسة، وليكون متناً دراسياً يعتمد عليه الطالب والأستاذ في دراسة هذه المادة.

وقد اشتمل الكتاب على عرض تحليلي لسيرة رسول الله ﷺ منذ ولادته الى أن اختاره الله إليه، والمراحل التي مر بها في صباه وشبابه، ومسيرة الدعوة إلى الله منذ أن بعثه اللّه في مكة إلى أن تكاملت حروبه وغزواته، وما يتصل بذلك من أحداث ومواقف وتحديات رافقت الدعوة، مع دراسة موضوعية لأهم جوانبها ومحاولة الاستفادة منها وأخذ العبرة.

وقد اعتمدنا في جميع ذلك على أوثق المصادر الاسلامية وفي مقدمتها كتاب الله وما رواه المعصومون الأطهار عليهم السلام مما يتعلق بسيرة النبي ﷺ على اعتبار أن أهل البيت أدرى بما فيه.

ولم نلتزم الترتيب الزمني للأحداث والوقائع التاريخية، وإنما قسمنا سيرته ﷺ العطرة الى وحدات متجانسة الى حد ما وخصصنا لكل وحدة مساحة مناسبة في البحث.

واقتصرنا على تناول وبيان بعض الوقائع المهمة التي تنطوي على قدر أكبر من الفائدة والعبرة، وأعرضنا عن ذكر الحوادث الجزئية، لكننا خصصنا بعد كل بحث مقطعاً خاصاً للمطالعة تناولنا فيه شخصية النبي ﷺ الذاتية وسيرته الأخلاقية من أجل تكوين صورة واضحة عن صفات النبي ﷺ وخصائصه وعلاقته بربه وطريقة تعامله مع أسرته والأمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١

السيرة النبوية ومصادرها الأصلية

كلمة السيرة مشتقة من كلمة السير، والسير يعني المشي والحركة، بينما السيرة تعني طريقة المشي والحركة والسلوك.

وبعبارة أُخرى: السيرة عبارة عن الأسلوب والنمط الذي يتبعه الانسان في حياته وفي أعماله اليومية.

وعندما نبحث في السيرة النبوية فإننا نريد التعرّف على الأسلوب والنمط الذي كان يتبعه النبي محمد بن عبد الله ﷺ في أعماله اليومية للوصول الى أهدافه النبيلة، فمثلاً: كيف كان سلوكه؟ وكيف كانت أخلاقه وعلاقاته مع أصحابه وزوجاته ومجتمعه؟ وكيف كان يبلّغ رسالته؟ وما هي الأحداث التي واجهها في طريق الدعوة إلى الله وكيف كان يتعامل معها؟ وكيف كان يقود مجتمعه إدارياً وسياسياً واقتصادياً وتربوياً وتعليمياً؟ وغير ذلك.

إن الكشف عن جوانب شخصية النبي ﷺ وما يرتبط بحياته ومواقفه وسلوكه وأوضاعه وطريقة تعامله مع الأحداث والتحديات والمستجدات وغير ذلك هو ما يراد بحثه عادة في السيرة النبوية.

ومن المعلوم ان السيرة العظيمة للنبي ﷺ قد تعرضت للكثير من الجعل والافتراء والتشويه على أيدي الكثيرين من حكّام ومندسين وغيرهم.. حيث كانت لدى هؤلاء خطة خبيثة تستهدف النيل من شخصية النبي ﷺ وسيرته، وقد نُفِّذت هذه الخطة عن طريق

دسَّ نصوص مُخْتَلقة ومزَّيفة في كتب السيرة والتاريخ تسيء إلى رسول الله ﷺ وتنسب إليه ما لا يليق به.

ولذلك أصبح من الضروري جداً إذا أردنا أن نكوّن صورةً واضحةً ونقيّة عن حياة وسيرة رسول الله أن نعتمد على مصادر صحيحة، ومعايير وضوابط تكون قادرةً على إعطائنا الصورة الحقيقية الأكثر نقاءاً وصفاءاً عن شخصية النبي ﷺ، وتكون قادرة أيضاً على إبعاد ذلك الجانب المصطنع والمزيّف من النصوص عن محيطنا الفكري والعملي بصورةٍ كاملة.

فما هي تلك المصادر التي ينبغي اعتمادها لاستخراج سيرة رسول الله ﷺ؟.

وما هي تلك المعايير والضوابط التي يجب أن نعتمدها لتمييز النصوص الصحيحة من النصوص المزيّفة؟؟

هناك عدة مصادر يمكننا أن نستخلص بالاعتماد عليها معالم شخصية النبي وتفاصيل حياته وسيرته وهي:

أولاً: القرآن الكريم، فإن القرآن الكريم أعطى صورةً واضحة ورائعة عن شخصية النبي ﷺ وصفاته وخصائصه ومواقفه في كثير من السور والآيات، ويستطيع قارئُ القرآن بالتدبُّر التام في الآيات التي نزلت في شأنِ رسول الله، أنْ يحيط بالكثير من جوانب شخصيته وحياته مُنذ أن بعثه الله وإلى أن فارق هذه الدنيا.

فقد أشار القرآن مثلاً إلى مكانة النبي ومنزلته وعظمته، في سورة الحجرات والنور والأحزاب وغيرها، وأشار إلى أسمائه وألقابه في سورة الصفّ وآل عمران والمائدة، وإلى صفاته وخصائصه، كالعصمة والطهارة والرأفة والرحمة والعطف والشجاعة، في سورة آل عمران والتوبة والأحزاب والأنبياء وغيرها، وأشار القرآن الى أخلاق النبيّ وصبره وثباته في مواقع التحدّي، وإلى طريقة تبليغه للرسالة، والى مواقفه من عدم استجابة قومه لدعوته وغير ذلك مما يرتبط بحياته وسيرته، في كثير من الآيات والسور.

فالرجوع الى نفس القرآن واستخراج سيرة النبي وصفاته وأفعاله من خلال ما عرضته الآيات يُعتبر من أوثق وأصحّ الطرق والمصادر لدراسة شخصية النبي وتكوين صورة واضحة ونقية عن حياته وأخلاقه وعلاقاته ومواقفه وقيادته والتحديات التي واجهها في طريق الدعوة إلى الله.

ثانياً: النصوصُ الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام التي عرضت سيرة وحياة رسول الله، فإنّ هذه النصوص تعتبر بعد القرآن أهمّ المصادر التي نأخذ منها خصائص ومميزات شخصية النبي وتفاصيل حياته، على اعتبار أن أهل البيت عليهم السلام أدرى بما فيه، وأنهم الأئمة المعصومون الذين يحملون العلم الإلهي.. وعندهم علم الكتاب وعلم ما كان ويكون. وليس لأحد كائناً من كان أن يناقش فيما يُنقل بطريق صحيح عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي لازم رسول الله ﷺ في جميع مراحل حياته، حيث كان يتبعه اتباع الفصيل أثرَ أمه، ويراه في الأوقات التي لا يراه فيها غيرُه.

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مئات بل آلاف النصوص والروايات التي تحدّثت عن حياة رسول الله العامة والأحداث الكبرى التي عاشها في حياته، وعن سيرته الذاتية والخاصة.

وثالثاً: الروايات التاريخية المروية بالتواتر عن المسلمين الأوّلين، فالنصوص المروية عن الأثبات من الصحابة الذين لا يميل بهم هوى عن جادة الحق، والتي تتحدّث عن سيرة النبي، تُعتبر من مصادر السيرة والتاريخ إذا ثبتت صحتها بالتواتر أو بإحدى وسائل الإثبات الأخرى.

أما النصوص والروايات التاريخية الأخرى التي لم ترو عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ولم تكن متواترةً، فلا بدَّ إذا أردنا تقييم هذه النصوص من أن نعتمد على ضوابط وقواعد نستطيع من خلالها تمييز النص الصحيح الذي يعكس الواقع التاريخي بصورة صادقة من النص المصطنع أو المحرف.

وأهمُّ الضوابط والقواعد التي ينبغي اعتمادها في هذا المجال هي:

أولاً: دراسة أحوال وأوضاع الناقلين للحديث، فإنَّ أول ما ينبغي ملاحظته في الحديث المنقول هو سنده، والسندُ: هو عبارةٌ عن مجموع أسماء الأشخاص الذين نقلوا لنا الحديث أو الحدث التاريخي، فلا بُدّ من دراسة أحوال وأوضاع هؤلاء الرواة لمعرفة ميولهم وارتباطاتهم السياسية والمصلحية، ولمعرفة مدى صدقهم ودقتهم فيما أخبرونا به، وبالتالي مدى امكانية الوثوق والاعتماد على نقلهم.

وطبيعيٌ أن من عُرف عنه أنه يكذب في خبره أو لا يدقق في نقله، فلا يمكن الاعتماد على حديثه، إلاّ بعد أن نتأكد من صحته من مصادر وجهات أخرى.

وكذلك من عُرف عنه أنه ينساقُ وراء أهوائه السياسية أو المذهبية أو المصلحية فإنه لا يمكن الأخذ بما ينقله لنا لأنه يكون بذلك قد أخلّ بدرجة الوثوق والاطمئنان، أو إذا كان ما ينقله يمثل اعترافاً بأمرٍ لا يرغب بالاعتراف به إلا حينما لا يجد مجالاً للتهرب والتنكر له.

وثانياً: أن يكون مضمونُ النص الذي يحكي لنا فعل وسلوك النبي منسجماً مع صفات وخصائص الشخصية النبوية ومميزاتها، فإذا جاء النص منسجماً ومتناسباً مع الوضع الطبيعي لشخصية رسول الله المثالية بما لها من خصائص ومميزاتٍ رسالية، فإنه يكون مقبولاً ونأخذُ بمضمونه إذا توافرت فيه سائرُ شروط القبول الأخرى.

فمثلاً: إذا ثبت لدينا بالدليل القطعي الصحيح أن شخصية النبي هي في أعلى درجات الطهر والعصمة والحكمة والشجاعة، وأنّه يتحلّى بكلّ الصفات النبيلة والفضيلة جامعاً لكلّ القيم الانسانية السامية، فلا بُدّ من جعل كلّ ذلك معياراً وميزاناً لأيّ نصٍ يُروى بشأنه ويريد أن يسجل لنا قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو موقفاً له ﷺ.

فإذا جاء النصُّ منسجماً مع هذه الخصائص والمميزات الثابتة بالدليل القطعي الصحيح فإنه يكونُ مقبولاً، وإلاّ فلا يمكن قبوله، كما لو نسب النصُّ - والعياذ بالله - الرذيلة أو الفجور لرسول الله، أو عبادة الأصنام، أو التصرفات التي تعبر عن جهله أو عدم اتّزانه، فإنّنا لا نتردّد في رفض مثل هذا النص. فكما أننا لا يمكنُ أن نقبل أن يكون مرجع ديني معروف بالورع والتقوى قد ألّف أغنيةً أو لحّنها للمغنية الفلانية مثلاً، فكذلك لا يمكن أن نقبل أن تُنسب إلى رسول الله ﷺ أو إلى أحدٍ من أئمة أهل البيت عليهم السلام تصرفات هي بمستوى ذلك أو أقبح وأسوأ من ذلك.

وثالثاً: عرضُ النصوص التاريخية وغيرها على القرآن الكريم فما وافق كتاب الله نأخذ به وما خالفه نتركه، وهذه قاعدةٌ لا بُدَّ أن نعتمدها ليس في نصوص السيرة فحسب، بل في كلّ الأحاديث المنقولة عن النبي ﷺ أو عن أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام سواء أكانت تاريخاً أو فقهاً أو أخلاقاً أو غير ذلك.

فقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «تكثُر لكم الأحاديث بعدي، فإذا رُوي لكم عنّي حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فاقبلُوه وما خالفَ فردُّوه».

وعن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «**ما لم يوافق كتاب الله فهو زُخرُفٌ**».

رابعاً: عدم التناقض والتنافي بين النصوص، فإن وجود التناقض فيما بينها يشير إلى وجود نص مجعول، أو تعرض النص لتصرف ما أزاله عن وجهته الصحيحة، الأمر الذي يستدعي مزيداً من الانتباه، وبذل المزيد من الجهد لمعرفة الصحيح من المزيّف منها.

خامساً: ان لا يخالف النص الواقع المحسوس، كما لو أدعى النص: أن أقرب طريق من مكة إلى المدينة يمر عبر الأندلس.

سادساً: ان لا يخالف البديهيات والضرورات العقلية الثابتة، ومن ذلك قولهم: إن اللّه عادل وحكيم، ولكنه يجبر عباده على أفعالهم، ثم يعاقبهم عليها. وقولهم: إنه تعالى لا يحده مكان ولا جهة، ثم يقولون إن له ساقاً وقدماً وأصابع وما إلى ذلك.

سابعاً: ان لا يخالف الحقائق العلمية الثابتة بالأدلة القطعية، كالنص الذي يقول: ان الأرض تقوم على قرن ثور.

ثامناً: ان لا يحمل النص تناقضاً مع ما هو ثابت تاريخياً بصورة قطعية، فإذا كان من الثابت ان الاسراء والمعراج قد حصلا قبل الهجرة، وثبت أن عائشة إنما انتقلت إلى بيت رسول اللّه ﷺ بعد الهجرة، فلا يمكن ـ بعد هذا ـ تصديق النص الذي ينقل عن عائشة نفسها أنها قالت: ما فقدت جسد رسول اللّه ﷺ في تلك الليلة؛ يعني ليلة الاسراء والمعراج.

تاسعاً: ان يكون النص الصادر عن رسول اللّه ﷺ أو أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام موافقاً للاحكام العقلية والفطرية السليمة، ومن ذلك حكم العقل بوجوب عصمة النبي ﷺ والامام عليه السلام عن الخطأ، فالنص الذي يريد أن ينسب إلى النبي ﷺ والامام المعصوم عليه السلام خطأً معيناً، لا نتردد في رفضه ولا نشك في أنه من الأخبار المصطنعة.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

التصوير القرآني للخلق العظيم

لاشك أن أصدق شاهد على عظمة أخلاق رسول اللّه ﷺ هو القرآن الكريم، وهو كلام اللّه تعالى ﴿ومن أصدق من اللّه قيلا﴾ فقد أشاد القرآن كثيراً بأخلاق صاحب الرسالة ﷺ، وكثرت فيه الآيات التي تتحدث عن شخصيته الأخلاقية وخصائصه وصفاته الفاضلة، ونحن سنستعرض ما تيسر من هذه الآيات:

١ ـ ﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على اللّه إن اللّه يحب المتوكلين﴾[١].

فالآية الكريمة تحكي لنا جانب العفو والرحمة والرفق واللين في سلوك النبي ﷺ وتعامله مع الآخرين.

٢ ـ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[٢].

لقد وصفت هذه الآية الرسول الأعظم ﷺ بأوصاف تكشف عن مدى تأثره وإهتمامه بالمسلمين وشؤونهم وحرصه عليهم، وتعبّر عن مدى شفقته ورحمته بهم، وكيف أنه ﷺ حين يصيب الواحد منهم بعض المشقة والتعب فإن ظلالاً من الأسى والحزن يخيم عليه ﷺ.

٣ ـ ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن باللّه ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم﴾[٣].

٤ ـ ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٤].

فعن الامام الصادق عليه السلام انه قال: "إن اللّه عز وجل أدّب نبيه فأحسن أدبه، فلما أكمل له الأدب قال: ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾".

٦ ـ ﴿خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين﴾.

فقد روي عنه ﷺ أنه قال: "أدبني ربي تأديباً حسناً إذ قال: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين﴾ فلما قبلت ذلك منه قال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾".

---

(١) آل عمران ـ ١٥٩.
(٢) التوبة ـ ١٢٨.
(٣) التوبة ـ ٦١.
(٤) القلم ـ ٥.

٢

حالة المجتمعات العربية قبل الاسلام

البداية الطبيعية للحديث عن رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ تفرض علينا إعطاء لمحة عن تاريخ ما قبل البعثة وما اتصل بها من أحداث ووقائع، لنتعرف الى الظروف والأوضاع التي كانت تحكم المجتمعات العربية آنذاك والمنطقة التي انطلقت فيها دعوة النبي ﷺ الى الاسلام.

وسوف نستعرض في حديثنا هنا الظروف والأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في منطقة شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي.

١ ـ الوضع الديني:

على المستوى الديني: كانت الوثنية هي الديانة الكبرى في شبه الجزيرة العربية وكانت عقيدة الشرك، وعبادة الأصنام متفشية بين سكان هذه المنطقة.

ويكفي أن نذكر أن عبادتهم كانت ملونة باللون القبلي فلكلّ قبيلة، بل لكل بيتٍ أحياناً وثنٌ وطريقةٌ في العبادة، وبالرغم من أن الكثيرين منهم كانوا يعتقدون بوجود الله وخالقيته، إلاّ أنهم كانوا يعتبرون أن عبادتهم للأصنام تقرّبهم الى الله زلفى، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك بقوله تعالى: **﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقربونا الى الله زُلفى﴾**[1].

(١) الزمر: ٣.

أضف الى ذلك أنهم ما كانوا يعتقدون بالمعاد والحياة بعد الموت، وقد أشار القرآن الى ذلك في كثير من الآيات.

هذه حال الوثنية، أما اليهودية والنصرانية فلم تستطيعا بسبب عملية التحريف الكبرى التي تعرضتا لها بعد موسى وعيسى عليهما السلام أن تقدما إنموذجاً إيجابياً بنّاءاً للإنسان العربي ولم تحدث في صفاته الذميمة وعاداته السيئة أي تغيير أو تبديل حتى أن بعض النصارى من العرب كقبيلة تغلب لم يكونوا يعرفون من النصرانية إلا شرب الخمر..

إلا أن اليهودية والنصرانية ساهمتا مع ذلك في تحضير الإنسان العربي للفجر الجديد، وذلك بالتبشير بقرب ظهور نبي عربي، فكان اليهود يتوعدون العرب الوثنيين ويقولون لهم: «ليخرجنّ نبي فيكسرنَّ أصنامكم» وقد سمى جماعة منهم أبناءهم (محمداً) رجاء أن يكون هو النبي المنتظر.. كل ذلك هيأ الأجواء معنوياً لتقبل ظهور النبي ﷺ، وبسبب وزن أهل الكتاب علمياً عند العرب في الجاهلية فقد اكتسبت هذه التنبؤات بُعداً حقيقياً انعكس قبولاً للدعوة واستجابة لها.

٢ ـ الوضع السياسي:

وأما على المستوى السياسي: فإن سكان شبه الجزيرة العربية آنذاك، لم يخضعوا لأيّ نظام أو سلطة مركزية غير سلطة القبيلة.

وبسبب أن معظم سكان هذه المنطقة كانوا من البدو الرحّل الذين يُمسون في مكان ويصبحون في آخر من جهة، وبسبب رفضهم لجميع أنواع التسلُّط الذي يحدُّ من حرية الأفراد والقبيلة من جهةٍ ثانية، وبسبب بعض العوامل الاقتصادية نظراً لكون طبيعة المنطقة صحراوية لا تصلح للزراعة والعمل، ولا تساعد على الاستقرار وتنظيم الحياة والانتاج من جهة ثالثة، لأجل كل ذلك نجد أن هذه المنطقة بقيت بعيدةً عن سيطرة ونفوذ الدول الكبرى آنذاك كدولة الفرس ودولة الرومان، فلم تخضع المنطقة لحكم أي من الرومان والفرس والأحباش، ولم تتأثّر بمفاهيمهم وأديانهم كثيراً.

ومن هنا فقد نشأت عن هذا الوضع ظاهرةُ الدويلات القبلية، فكان لكل قبيلة حاكم، ولكل صاحب قوة سلطان، ولم يكن يجمعهم نظام مركزي واحد، أو سلطة سياسية مركزية، وإنما كانوا يعيشون فراغاً سياسياً في هذا الجانب.

٣ ـ الوضع الاجتماعي:

أما الوضع الاجتماعي: فإن الحياة الصعبة التي كان يعيشها الانسان العربي في البادية، والحكم القبلي، وعدم وجود روادع دينية أو وجدانية قوية، دفعت بالقبائل الى ممارسة الحرب والاعتداء على بعضها البعض كوسيلة من وسائل تأمين العيش أحياناً، وأحياناً لفرض السيطرة، وأحياناً أخرى للثأر والاقتصاص، فكانت تُغيرُ هذه القبيلة على تلك وتستولي على أموالها وتسبي نساءها وأطفالها وتقتلُ أو تأسر من تقدر عليه من رجالها، ثم تعود القبيلة المنكوبة تتربّص بالقبيلة التي غلبتها وهكذا.

ولذلك فإن من يطالع كتب التاريخ يرى بوضوح الى أيّ حد كانت الحالة الاجتماعية متردِّية في ذلك العصر، فالسلْب والنهب والاغارة والتعصُّب القبلي كان من مميزات ذلك المجتمع، حتى إذا لم تجد القبيلة مَنْ تُغير عليه من أعدائها أغارت على أصدقائها وحتى على أبناء عمّها.

وكانت لأتفه الأسباب تحدث بينهم حروب طاحنة ومُدمِّرة يذهب ضحيتها آلاف الناس وتستمر لسنين طويلة. ولعلَّ من أبرز الأمثلة على ذلك ما عُرف (بحرب داحس والغبراء) وهما فرسان يملكُ أحدهما قيس بن زُهير ويملك الآخر حذيفة بن فزارة، فقد استبقا واختلفا حول السابق منهما، وقد أدّى اختلافهما بسبب هذا الأمر التافه الى التنازع ونشوب الحرب بين قبيلتيهما حيث استمرّت الحرب بينهما أربعين سنة من سنة ٥٦٨م وحتى سنة ٦٠٨م.

وأفضل مرجع للتعرّف الى ملامح الوضع الاجتماعي في العهد الجاهلي هو كلماتُ أمير المؤمنين عليه السلام التي يصف فيها حال العرب قبل بعثة النبي ﷺ حيث يقول في بعض كلماته: «**إنَ الله بعث محمداً ﷺ نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار، منيخون. أي مقيمون. بين حجارة خُشنٍ وحيّات صُمَ، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة**»[1].

ويقول جعفر بن أبي طالب (رضوان الله عليه) وهو يصف الوضع الجاهلي لما دخل

(٢) نهج البلاغة: خ٢٦.

على النجاشي وقد سألهم عن أحوالهم، قال: «**كنا قوماً أهل جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونسيءُ الجوار، ويأكلُ القويّ منّا الضعيف**».

٤ ـ الوضع الأخلاقي:

وأما الوضع الاخلاقي العام: فقد كانت القسوة والفاحشة وتعاطي الخمر والربا ووأد البنات والأبناء خشية العار والفقر هي السمات العامة للأخلاق المتفشية في المجتمع الجاهلي.

ويكفي أن نشير الى بعض النماذج من العادات والتقاليد اللاّأخلاقية التي كانت سائدة آنذاك لمعرفة مدى شيوع الفاحشة وظاهرة انعدام الغيرة والتحلل الأخلاقي في تلك المجتمعات.

فقد أشار النص الذي ذكرناه آنفاً عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن أخيه جعفر إلى بعض الموبقات التي كانت معروفة بينهم وإلى بعض حالاتهم وأوضاعهم السيئة. وقد أدان القرآن حياتهم الجاهلية ونعى عليهم كثيراً من حالاتها فأشار على سبيل المثال إلى أن الزواج من الخالة زوجة الأب كان من جملة سلوكهم الجاهلي البغيض، وقد أشار القرآن الى تحريم هذا السلوك بقوله تعالى: ﴿**ولا تَنْكَحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وسَاءَ سَبِيلاً**﴾[1].

وكانوا يُكرهون الجواري والإماء والخدم على البغاء والزنا من أجل كسب المال، وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله: ﴿**ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردْنَ تَحَصُّناً لِتبتغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدنيا**﴾[2].

ويقال: إنه كانت لعبد الله بن أبيّ (رئيس المنافقين) ست جوارٍ وكان يُكرههنَّ على البغاء للحصول على المال.

ومن عاداتهم القبيحة أيضاً الطواف حول الكعبة وهم عراة سواء الرجال والنساء.

وكان الرجل إذا هدده الإفلاس وشعر بأنه سيُصاب بالفقر كان يبادر الى قتل أولاده

---

(١) النساء:٢٢.

(٢) النور:٣٣.

خوفاً من أن يراهم أذلاء جائعين، وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى: ﴿**ولا تَقْتُلُوا أولادَكُمْ مِنْ إملاقٍ نَحنُ نَرزُقُكُمْ وإيَّاهُم**﴾[1].

كما أننا نستطيعُ معرفة مدى شيوع ظاهرة وأد البنات ودفنهنَّ وهنَّ أحياء من تعرض القرآن الكريم لهذه العادة، وإدانته لهذه الجريمة، وتعنيفه لتلك المجتمعات على هذا السلوك الوحشي البشع، فقد قال تعالى: ﴿**وإذا المَوْؤدَةُ سُئِلَتْ بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿**وإذا بُشِّرَ أحدَهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وجهُهُ مُسْوداً وَهُو كظيمٌ، يَتَوارَى مِنَ القومِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِه، أيُمسِكُهُ على هُونٍ أمْ يَدُسُّه في التُّرابِ ألا ساءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾[3].

هذه هي بعض أوضاع وأحوال المجتمع في شبه الجزيرة العربية آنذاك.

ومن قلب هذا المجتمع، ومن قلب هذا الجوّ القبلي المعقد والمشرذم الذي توافرت فيه كلّ أنواع الفساد والبعد عن القيم والأخلاق، الذي يتطلب عملية تغيير شاملة، خرج رسول الله ﷺ ليكون قائد عملية التغيير هذه بالوحي الإلهي وبالرعاية الربانية وعلى أساس الحق والصدق والطهر، وقد استطاع الرسول ﷺ في فترةٍ وجيزةٍ جداً أن ينقل هذه الأمة من حضيض الذل والمهانة الى أوج العظمة والعزّة والكرامة، وأن يغرس فيها شجرة الايمان التي من شأنها أن تغيّر فيها كلّ عاداتها ومفاهيمها الجاهلية وأن تقضي على كل أسباب شقائها وآلامها.

لقد استطاع الاسلام في فترةٍ لا تتجاوز سنواتها عدد أصابع اليدين أن يحقق أعظم انجاز في منطقة كانت لها تلك الصفات والمميزات، وأن يحدث انقلاباً حقيقياً وجذرياً في عقلية ومواقف وسلوك وأخلاق تلك الأمة وفي مفاهيمها، وأن ينقلها من العدم الى الوجود، ومن الموت الى الحياة.

وقد عبّر عن ذلك جعفر بن أبي طالب لملك الحبشة بعدما بيّن له الأوضاع المتردية التي كانوا يعيشونها قبل مبعث النبي ﷺ فقال: «.. **فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقهُ وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء**

(١) الانعام:١٥١.

(٢) التكوير:١ ـ ٩.

(٣) النحل:٥٨ ـ ٥٩.

الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة..».

العوامل المساعدة على انتصار الاسلام[1]:

ولعل أهم العوامل التي ساعدت على انتصار الاسلام وانتشاره في سرعة قياسية هي:

أولاً ـ نوع معجزة الرسول الأكرم ﷺ: وهي هذا القرآن الكريم الذي حيّر العرب ليس بما يتضمنه من قيم وعلوم ومعارف وقوانين عامة وشاملة فحسب، وإنما بما اشتمل عليه من بلاغة وفصاحة وبيان، حيث استطاع بذلك أن يقهر العرب ويبهرهم فيما كانوا يعتبرون أنفسهم ويعتبرهم العالم بأسره قمة فيه.

ثانياً ـ خصائص شخصية رسول الله ﷺ: ومميزاته الذاتية والأخلاقية والقيادية، أي سيرته، وأخلاقه، وسلوكه، وقيادته، وإدارته، وأسلوبه في نشر الدعوة، وإصراره وتحمله لكل المشاق والآلام والأذى، ورفضه لكل المساومات، وصبره وثباته في مواقع التحدي، فقد كانت هذه المميزات عامل استقطاب وجذب.. وكان لها الأثر الكبير في ظهور دعوته وسرعة انتصار وانتشار رسالته.

قال تعالى: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك**﴾.

وقد أشار جعفر بن أبي طالب الى بعض هذه الخصائص والمميزات في شخصية الرسول بقوله: .. حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه..

ثالثاً ـ الحالة الاجتماعية والأخلاقية المتردية: التي كانت سائدة في المجتمع العربي آنذاك مما أشرنا إليه فيما تقدم، فإن هذه الأوضاع القاسية التي كانت تهيمن على الأمة، وذلك الضياع الذي كان يسيطر عليها، قد هيأ الانسان الجاهلي المسحوق نفسياً لقبول الحق والتفاعل معه، وجعله يتطلع إلى الدعوة على أنها الأمل الوحيد الذي يستطيع أن يخفف من شقائه وآلامه، وينقذه من واقعه المزري والمهين ذاك.

---

(١) راجع الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ: ج٢ ص٢١٠ إلى ٢٣٦.

رابعاً ـ بشائر أهل الكتاب: (اليهود والنصارى) بقرب ظهور نبي في المنطقة العربية، فإن تلك البشارات قد سهلت هي الأخرى قبول دعوة النبي ﷺ وانتشار رسالته بين الناس من ذوي الفطرة السليمة كما تقدم.

خامساً ـ الفراغ العقائدي والسياسي: الذي كانت تعيشه المنطقة آنذاك.

سادساً ـ صمود أصحابه ﷺ: وثباتهم في مواجهة الضغوط النفسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحملهم لآلام، وصبرهم على التعذيب والجوع والاضطهاد بمختلف أنواعه، ثم اندفاعهم للجهاد والتضحية والشهادة بكل قوة وشجاعة وشوق من أجل الدفاع عن العقيدة والرسالة، وطاعتهم المطلقة لرسول الله، وانضباطهم التام في إطار قيادته والتكاليف التي كان يحددها لهم.

قال تعالى: ﴿**محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشد على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل...**﴾.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

منزلته الأخلاقية ﷺ في العهد الجاهلي

إنّ الصيغة القرآنية لمواصفات الشخصية المؤمنة بنماذجها المختلفة قد أخذت طريقها للتجسيد العملي في شخصية رسول اللّه ﷺ.

فشخصية رسول اللّه ﷺ قد مثّلت قمة التسلسل بالنسبة لدرجات الشخصية الإسلامية التي توجد عادة في دنيا الإسلام فكان ﷺ عظيماً في فكره ووعيه، قمة في عبادته وتعلّقه بربّه الأعلى، رائداً في أساليب تعامله مع أسرته والناس جميعاً، مثالياً في حسم الموقف، والصدق في المواطن، ومواجهة المحن، فما من فضيلة إلاّ ورسول اللّه ﷺ سابق إليها، وما من مكرمة إلاّ وهو متقلّد لها.

ومهما قيل من ثناء على أخلاقيته السامية قديماً وحديثاً، فإن ثناء اللّه تعالى عليه في كتابه العزيز يظل أدق تعبير وأصدق وصف لمواصفات شخصيته العظيمة دون سواء.

فقول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] عجز كل قلم وكل تصوّر وبيان عن تحديد عظمته، فهو شهادة من اللّه سبحانه وتعالى على عظمة أخلاق الرسول ﷺ وسمو سجاياه وعلو شأنه من مضمار التعامل مع ربّه ونفسه ومجتمعه، بناء على أنّ الأخلاق مفهوم شامل لجميع مظاهر السلوك الإنساني.

وقبل أن يتحدث القرآن عن عظمة أخلاقه فقد نطق الكفار والمشركون بهذه الحقيقة، والنبي ﷺ لم يبعث بعد، فاتصاف النبي ﷺ بالخلق العظيم لم يكن وليد الفترة التي بعث فيها، أو من افرازات تلك المرحلة تمشياً مع أهمية الدور الملقى على عاتقه، لا بل التاريخ يذكر ان النبي ﷺ كان ذا منزلة أخلاقية عظيمة في العهد الجاهلي، وكان محل اعجاب وتقدير قومه ومجتمعه بل ومضرب المثل في ذلك، وقد شهد الكفار أنفسهم لرسول اللّهﷺ بصدق اللهجة والأمانة والعفاف ونزاهة الذات.

فقد روي ان الأخنس بن شريق لقي أبا جهل يوم بدر فقال له: يا أبا الحكم، ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا، تخبرني عن محمد صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: واللّه إن محمداً لصادق وما كذب قط.

وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم،

---

(١) القلم، ٤.

وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر؟! لا واللّه ما هو بساحر.

ولما بعث رسول اللّه ﷺ إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، أحضر قيصر أبا سفيان وسأله بعض الأسئلة مستفسراً عن النبي، وما سأله، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال؟ ففلت والكلام لسفيان: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. قال: كيف عقله ورأيه؟ قلت: لم نعب له عقلاً ولا رأياً قط.

وروى الطبري: كانت قريش تسمى رسول اللّه ﷺ قبل ان ينزل عليه الوحي (الأمين).

وروي عن أبي طالب (رضوان اللّه عليه) في حديث عن سيرة النبي ﷺ في الجاهلية قال: **لقد كنت اسمع منه إذا ذهب من الليل كلاماً يعجبني، وكنا لا نسمي على الطَّعام والشَّراب حتى سمعته يقول: بسم اللّه الأحد، ثم يأكل فإذا فرغ من طعامه قال: الحمد للّه كثيراً، فتعجبت منه وكنت ربما أتيت غفلة فأرى من لدن رأسه نوراً محدوداً قد بلغ السماء، ثم لم أرى منه كذبة قط ولا جاهلية قط، ولا رأيته يضحك في غير موضع الضحك، ولا وقف مع صبيان في لعب، ولا التفت إليهم، وكانت الوحدة أحب إليه والتواضع**".

٣

ولادة ونشأة النبي الأعظم

نسب النبي:

يعود نسب النبي ﷺ الى هاشم بن عبد مناف الذي تنتسب إليه أشرف أُسرة في مكة هي أُسرة بني هاشم.

فهو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، المنحدر من ذرية اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام.

ولدته أمه آمنة بنت وهب في مكة المكرمة في منزل أبيه عبد الله بن عبد المطلب في شعب أبي طالب يوم الجمعة في السابع عشر من شهر ربيع الأول في عام الفيل الموافق لسنة ٥٧١ للميلاد.

رضاعه:

لم يرتضع من أمه سوى ثلاثة أيام، ثم حظيت بشرف ارضاعه حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب من بني سعد.

فقد رأى عبد المطلب أن يرسل حفيده الى البادية ليكمل رضاعه هناك، وينشأ ويترعرع في البادية، ليكتسب اللغة الصحيحة، والقوة والمناعة.

وكانت حليمة ترعاه هي وزوجها وتقدمه حتى على أولادها، وقد وجدت فيه كل الخير والبركة، وقد روي عنها أنها قالت: «قدمنا منازل بني سعد ومعي يتيم عبد المطلب، ولا أعلم أرضاً أجدب من أرضنا، فكانت غنمي تجيء حيث حلَّ محمد فينا

جياعاً فنحلب منها ونشرب ويتدفق الخير علينا، وأصبح جميع من في الحيّ يتمنى ذلك اليتيم الذي يسَّر لنا الله ببركته الخير ودفع عنا الفقر والبلاء».

بقي النبي مع حليمة إلى أن بلغ سن الخامسة، فعادت به الى أهله ليكون في كفالة جده عبد المطلب ثم في رعاية عمه أبي طالب.

النبي في كفالة جده:

فَقَدَ النبي ﷺ أمه بعد عودته من حي بني سعد وله من العمر ست سنوات على أشهر الروايات، وأصبح بذلك يتيم الأبوين، فعاش في كفالة جده عبد المطلب، الذي كان يرعاه خير رعاية، ولا يأكل طعاماً إلا إذا حضر، وكان يفضله على سائر أبنائه.

ويبدو أن عبد المطلب كان عارفاً بنبوة محمد وما سيكون من أمره وشأنه من خلال أمرين:

أولاً: من الصفات والملامح التي كانت تظهر على النبي ﷺ، والبركات والأحداث التي رافقته منذ ولادته وفي أحضان أمه ومرضعته.

وثانياً: من البشائر والأخبار التي كانت تُنبىء بمستقبله ونبوته.

إن هذا النوع من المؤشرات والدلائل رسّخت في نفس عبد المطلب الاعتقاد بنبوة حفيده وجعلت له ﷺ مكانة خاصة عنده، بحيث كان يعطيه من الحب والعطف والحنان والاهتمام ما لم يعطه لأحد غيره، إلاّ أن هذا الحنان الدافق وهذه الرعاية الكريمة لم تدم له ﷺ طويلاً، فقد توفي عبد المطلب والنبي في الثامنة من عمره، فانتقل بعده الى دار عمه أبي طالب.

النبي في رعاية أبي طالب:

قبل أن توافي المنية عبد المطلب كان قد جمع أولاده العشرة وأوصاهم بابن أخيه محمد ﷺ ولمّح لهم بما سيكون من شأنه في المستقبل، ومما قاله لهم: «إني قد خلفت لكم الشرف العظيم الذي تطأون به رقاب الناس» على حد تعبير المؤرخ اليعقوبي.

وقد اختار عبد المطلب من بين أبنائه أبا طالب ليكون هو من يكفل محمداً بعده ويقوم برعايته، وذلك لسببين:

الأول: إن أبا طالب كان أخاً لوالد النبي ﷺ من أمه، فإن أمهما هي فاطمة بنت عائذ

المخزومية، وطبيعي أن يكون أبو طالب أكثر حناناً وعطفاً وحباً لابن أخيه ـ من أبيه وأمه ـ من بقية اخوانه كالحارث والعباس وغيرهما الذين كانوا من أمهات شتى.

الثاني: إن أبا طالب كان أنبل إخوته وأكرمهم، وأعظمهم مكانة في قريش، وأجلهم قدراً، وقد ورث زعامة أبيه عبد المطلب، وخضع لزعامته القريب والبعيد بالرغم من فقره.

وقد ورد عن علي عليه السلام أنه قال: «**إن أبي ساد الناس فقيراً، وما ساد فقير قبله**».

وقد قام أبو طالب برعاية النبي خير رعاية، وأدى الامانة، وحفظ الوصية، وبقي محمد ﷺ شغله الشاغل الذي شغله هو وزوجته فاطمة بنت أسد حتى عن أولادهما في أشد المراحل ضيقاً وحرجاً حتى النفس الأخير من حياتهما.

ولم يكن يعني أبا طالب شيء كما تعنيه رعاية النبي محمد ﷺ والمحافظة عليه. وقد بلغ من عنايته به وحرصه عليه أنه كان إذا اضطر الى السفر لخارج مكة أو الحجاز أخرجه معه.

السفر الى الشام:

تحدث المؤرخون عن رحلتين للنبي الى الشام، احداهما: بصحبة عمه، والأخرى: بصحبة غلام لخديجة في تجارة لها.

في الرحلة الأولى: كان عمر النبي اثنتي عشرة سنة، وكان مع عمه أبي طالب ضمن قافلة تجارية لقريش، وفي الطريق توقفت القافلة في منطقة تسمى بُصرى، وكان فيها راهب يدعى بحيرا، وقد اتفق أن التقى الراهب قافلة قريش ولفتت نظره شخصية النبي ﷺ وراح يتأمل ويحدق في صفاته وملامحه، خاصة بعد ما رأى أن سحابة من الغيم ترافق محمداً ﷺ أينما جلس لتحميه من حر الشمس، فسأل عنه بعض من في القافلة فأشاروا إلى أبي طالب وقالوا له: هذا عمه، فأتى الراهب أبا طالب وبشره بأن ابن أخيه نبي هذه الأمة وأخبره بما سيكون من أمره بعدما كان قد كشف عن ظهره ورأى خاتم النبوة بين كتفيه ووجد فيه العلامات التي وصفته بها التوراة والأناجيل وغيرها.

وتذكر النصوص أن بحيرا أصرَّ على أبي طالب بأن يعود به الى مكة وأن يبقيه تحت رقابته خوفاً عليه من اليهود وغيرهم، فقطع أبو طالب رحلته ورجع به الى مكة.

وفي الرحلة الثانية: كان عمر النبي خمسة وعشرين سنة، ويقول المؤرخون: إن سفره هذا كان في تجارة لخديجة بنت خويلد قبل أن يتزوج بها، وأن أبا طالب هو الذي أشار عليه العمل بالتجارة مع خديجة بسبب الوضع المادي الصعب الذي كان يعيشه آنذاك.

فدخل مع خديجة في شراكة تجارية، ولم يكن أجيراً لها، إذ لم يكن النبي ﷺ أجيراً لأحد قط، وسافر برفقة ميسرة ـ وهو موظف لدى خديجة ـ وربح في تجارته أضعاف ما كان يربحه غيره.

بقي النبي ﷺ في رعاية عمه أبي طالب حتى كبر وبلغ الخامسة والعشرين من عمره فتزوج بخديجة بنت خويلد.

الزواج من خديجة:

يذكر المؤرخون: ان النبي ﷺ تزوج بخديجة بنت خويلد ـ زوجته الأولى ـ بعد عودته من رحلته الثانية الى الشام، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره الشريف. وهناك أقوال أخرى تفيد أن عمره كان أكثر من ذلك بعدة سنوات أي في سن ٣٠ أو ٣٧ سنة.

ونكاد نقطع بسبب كثرة النصوص، أن خديجة هي التي بادرت أولاً وأبدت رغبتها في الزواج من محمد ﷺ بعدما رأت فيه من الصفات النبيلة ما لم تره في غيره.

ويرجح كثير من المؤرخين أن يكون عمر خديجة حين زواج النبي بها ثمانية وعشرين عاماً وليس أكثر من ذلك.

كما أنها لم تتزوج قبله بأحد قط، وإنما تزوج بها النبي ﷺ وكانت عذراء، وأما النصوص التي تفيد أنها تزوجت قبله برجلين هما: عتيق بن عائذ المخزومي، ثم أبو هالة التميمي، فإننا نحتمل جداً أن تكون هذه النصوص مما صنعته يد السياسة بهدف الايحاء بأن النبي ﷺ لم يتزوج امرأة عذراء غير عائشة.

مهنته ﷺ قبل البعثة:

يتحدث المؤرخون عن الأعمال التي كان يقوم بها النبي قبل البعثة لتأمين العيش وكسب الرزق، فيذكرون: أن النبي كان يرعى الغنم في مرحلة الصبا ومطلع الشباب، كما

أنه عمل في التجارة الخارجية مع خديجة عندما أصبح شاباً في عمر الخامسة والعشرين.

ولا بد أن نتحدث عن هذين الأمرين، رعي الغنم، ومزاولة التجارة، لمعرفة ما إذا كان النبي قد تعاطى هذا النوع من الأعمال في حياته أم لا.

أما الأمر الأول: وهو رعي الغنم، فإن لنا أن نتساءل هل حقاً ان النبي عمل في الرعي أم لا؟.

الحقيقة أنه لابد في هذا المجال من أن نفرق بين أمرين: بين أن يكون النبي قد رعى الأغنام لأهله، وبين أن يكون قد اتخذ الرعي مهنة وعملاً له بحيث كان أجيراً لأهل مكة يرعى لهم الأغنام مقابل أجرٍ معينٍ يحصل عليه منهم.

فالأمر الأول نقبله ولا إشكال فيه، وهو أن يكون النبي قد رعى الغنم لأهله، لأن رعي الغنم آنذاك كان عملاً عادياً، فلا مانع من أن يكون النبي قد قام به كغيره من ابناء مجتمعه الذين كانت المواشي عندهم من الوسائل العادية الموجودة في كل بيت من أجل العيش وكسب الرزق.

وليس هناك أي عيب أو نقص في أن يقوم الإنسان بالعمل والكدح في سبيل تأمين العيش الكريم، والعمل في سبيل العيش من سنن الأنبياء والمرسلين، وقد عاش الكثيرون من الأنبياء من عمل أيديهم وعرق جبينهم، واتقنوا بعض المهن والأعمال الشريفة حتى لا يكونوا عبئاً على أحدٍ من الناس، وقد أوصى الإسلام بالعمل للدنيا والآخرة، وأكد عليه، ورغَّب به، وندد بالكسالى والتنابل الذين يحقرون الأعمال الصغيرة الشريفة ويرفضونها ليتحولوا إلى عبءٍ على المجتمع بسبب بطالتهم.

إذن فلا مانع ان يكون النبي قد رعى الغنم لأهله وعشيرته.

وما نرفضه هو الأمر الثاني، وهو أن يكون النبي قد عمل أجيراً في رعي الغنم لأهل مكة أو لغيرهم.

والذي يدعونا إلى هذا الشك أمران:

أولاً: ان الروايات الواردة في رعيه للغنم مختلفة ومتناقضة، فبعضها يقول: إنه رعى لأهله، وبعضها يقول: لأهل مكة، وبعضها يقول: بالقراريط ـ أي بأجرٍ زهيد ـ والبعض الآخر ابدلت فيه كلمة بالقراريط بكلمة باجياد التي هي اسم مكانٍ في مكة، ومن

الواضح أن مثل هذا الاختلاف غير مقبول إذا كان الراوي واحداً، ويكون من دواعي الشك في الرواية.

وثانياً: إن اليعقوبي وهو المؤرخ المعروف بدقته وتثبته في الأمور التاريخية، قد نص على أن النبي ﷺ لم يكن أجيراً لأحد قط، وهذا يعني انه ﷺ لم يكن أجيراً لأهل مكة ولا لغيرهم ولا لأحدٍ حتى لخديجة نفسها.

وأما الأمر الثاني، وهو عمل النبي ﷺ بالتجارة فيذكر المؤرخون: ان النبي ﷺ عمل بالتجارة مع خديجة بنت خويلد قبل الزواج منها وقد سافر إلى الشام لهذه الغاية كما تقدم.

والشيء الذي لابد من التأكيد عليه هنا، أن تجارة النبي مع خديجة كانت على نحو المضاربة والمشاركة، ولم تكن على نحو الإجارة، فلم يكن النبي أجيراً أو موظفاً عند خديجة يأخذ بدل ما يقدمه من أتعاب، وإنما كان شريكاً لها في تجارتها وله نسبة في الأرباح.

وكذلك فإن ما ورد في بعض النصوص من أن خديجة استأجرته في تجارتها لا يمكن المساعدة عليه، ولا تؤيده الشواهد، بل الشواهد التاريخية على خلافه، وذلك لسبب بسيط هو ما ذكره اليعقوبي من أن النبي لم يكن أجيراً لأحدٍ قط.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

علاقته ﷺ بربه / ١

صلاته ﷺ:

نظراً لما تحتله الصلاة من مكانة عظمى في الإسلام فقد كان اهتمام رسول الله ﷺ بها وتعاهده لأمرها منقطع النظير.

* فقد كان ﷺ يصلي الصلاة في أول وقتها ويحث المسلمين على ذلك. فقد روى ابن سعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى اللّه؟

قال ﷺ: **"الصلاة لوقتها. قلت: ثم أي شيء؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي شيء؟ قال: الجهاد في سبيل الله"**.

* وعن عائشة: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه. فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه[١].

* ولعظيم شوقه للوقوف بين يدي الله في الصلاة فقد كان ﷺ ينتظر وقت الصلاة. ويترقب دخوله. ويقول لبلال مؤذنه: أرحنا يا بلال[٢].

* عن الحسين بن علي عليه السلام في حديث عن خشوع رسول الله ﷺ في صلاته يقول عليه السلام: **"كان ﷺ يبكي حتى يبتل مصلاه خشية من الله عزّ وجلّ من غير جرم"**.

* وعن الإمام الباقر عليه السلام والامام الصادق عليه السلام قالا: **"كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام على أصابع رجليه حتى تورّمت فأنزل الله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾"**[٣].

* وعن الامام علي بن الحسين عليه السلام قال: **"إن جدي رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلم يدع الاجتهاد له. وتعبّد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق. وورم القدم. وقيل له: أفتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: أفلا أكون عبداً شكوراً"**[٤].

* وحول صلاة رسول الله ﷺ في الليل يحدثنا عبد الله بن عباس يقول: "حتى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل إستيقظ رسول الله ﷺ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده. ثم قرأ العشر آيات الخواتم من سورة آل عمران. ثم قام إلى شن معلقة. فتوضأ

(١) اخلاق النبي للاصبهاني ص ٢٥١.
(٢) البحار: ج ٨٣ ص ١٦.
(٣) سنن النبي للطباطبائي ص ٣٢.
(٤) أمالي الطوسي: ٤٧.

منها. فأحسن وضوءه، ثم قام يصلي، فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن، فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح".

ومن المعلوم ان صلاة الليل ثمان ركعات، ثم الشفع ركعتان، ثم الوتر ركعة واحدة، والركعتان الأوليان يستحبان قبل صلاة الليل كما في حديث الامام زين العابدين في كتاب وسائل الشيعة كتاب الصلاة باب استحباب صلاة ركعتين قبل صلاة الليل، والركعتان اللتان صلاهما ﷺعند مجيء المؤذن له هما نافلة الفجر فيصبح المجموع خمسة عشر ركعة كما ذكر في حديث أبن عباس.

وعن أحد الصادقين عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ كان يصلي بعدما ينتصف الليل ثلاث عشرة ركعة.

وسئلت أم سلمة عن صلاة رسول الله ﷺفي الليل ففالت: ما لكم وصلاته، كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر ما ينام، ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصبح.

وعن الامام الصادق عليه السلام في حديث بشرح فيه كيفية احياء النبي ﷺ لليل قال:

"كان يُؤتى بطهور فيخّمر عند رأسه ويوضع سواكه تحت فراشه ثم ينام ما شاء الله، فإذا استيقظ جلس، ثم قلّب بصره في السماء ثم تلا الآيات من آل عمران "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار" ثم يستن ويتطهر ثم يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات على قدر قرائته ركوعه، وسجوده على قدر ركوعه، يركع حتى يقال متى يرفع رأسه ويسجد حتى يقال متى يرفع رأسه، ثم يعود إلى فراشه فينام ماشاء الله، ثم يستيقظ فيجلس فيتلوا الآيات من آل عمران ويقلّب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيصلي أربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثم يعود إلى فراشه فينام ماشاء الله ثم يستيقظ فيجلس فيتلوا من آل عمران ويقلّب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم الى المسجد فيتوضأ ويصلي الركعتين ثم يخرج إلى الصلاة".

٤

مكانة النبي ﷺ قبل البعثة

اتفق المؤرخون على أن محمداً ﷺ أصبح في مطلع شبابه موضع احترام في مجتمعه، لِما كان يمتلكه في شخصيته من وعي، وحكمة، وإخلاص، وبُعد نظر.

وقد اشتهر بسمو الأخلاق، وكرم النفس، والصدق والأمانة حتى عُرف بين قومه بالصادق الأمين، كما اشتهر برجاحة عقله، وصوابية رأيه حتى وَجَدَ فيه المكّيون والقرشيون سيداً من سادات العرب الموهوبين، ومرجعاً إليهم في المهمات وحل المشكلات والخصومات.

فقد ذكر المؤرخون: ان الناس كانوا يتحاكمون إلى النبي ﷺ في الجاهلية، لأنه كان لا يداري ولا يماري.

وكان النبي ﷺ يسهم في بعض أحداث مجتمعه، وفي تجارب قريش السياسية والعسكرية والدينية، حيثما رأى في هذه التجارب حقاً وعدلاً، وقد شارك بشكل فاعل ومؤثر في حدثين تاريخيين حصلا قبل البعثة هما: حلف الفضول، وتجديد بناء الكعبة.

حلف الفضول:

بعد سلسلة من حوادث الاعتداء على أموال وأعراض بعض الوافدين الى مكة في موسم الحج للزيارة أو التجارة، دعا الزبير بن عبد المطلب الى إقامة تحالف بين قبائل قريش بهدف: مواجهة كل من يعتدي على الآخرين، ووضع حدٍ لغطرسة بعض المكّيين الذين كانوا يتعمدون الإساءة ويقومون بالاعتداء على الزائرين.

فاستجاب لدعوته بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو أسد وغيرهم، وعقدوا اجتماعاً في دار عبد الله بن جدعان تحالفوا فيه على محاربة الظلم والفساد والانتصار للمظلوم والدفاع عن الحق، وكان هذا التحالف أشرف تحالف يعقد في الجاهلية وقد سمي بحلف الفضول، لأن قريشاً قالت بعد إبرامه: هذا فضول من الحلف، وقيل: لأن ثلاثة ممن اشتركوا فيه كانوا يُعرفون باسم الفضل، وهم: الفضل بن مشاعة، والفضل بن بضاعة، والفضل بن قضاعة، فسمي بذلك تغليباً لأسماء هؤلاء.

تبنى أبو طالب وغيره من القرشيين الحلف المذكور، وقد حضره النبي ﷺ وشارك فيه ـ وكان يتجاوز العشرين من عمره الشريف ـ وأثنى عليه بعد نبوته وامضاه، فقد رُوي أنه قال ﷺ: «**لقد حضرت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما يسرني به حمر النعم، ولو دعيت إلى مثله لأجبت**».

إن نظرة تحليلية بسيطة على هذا الحلف تقودنا الى تسجيل الأمور التالية:

أولاً: إن ثناء النبي ﷺ على هذا الحلف، ومشاركته فيه، وامضاءه له، يدل على أن هذا الحلف ينسجم في أهدافه مع أهداف الاسلام، لأنه قائم على أساس الحق والعدل والخير.

ثانياً: إن النبي ﷺ يمتدح هذا الحلف ويثني عليه مع أن الذين قاموا به كانوا وقتها على الشرك والكفر، ولكنه يهدم مسجد الضرار مع أن الذين بنوه كانوا وقتها يتظاهرون بالاسلام ويتعاملون على أساسه بحسب الظاهر.

وهذا يؤكد واقعية الاسلام، وأنه إنما ينظر الى مضمون العمل وقيمته وليس الى شكله وصورته، فالاسلام لا يغتر بالمظاهر، ولا تخدعه الشعارات مهما كانت برّاقة إذا كانت تخفي وراءها الوصولية والخيانة والتآمر، فالحق حق، ومقبول، ولا بد من الالتزام به والتعامل على أساسه، ولو صدر من مشرك، والباطل باطل، ومرفوض، ولا يجوز الالتزام به ولا التعامل معه مهما كانت شعاراته وعناوينه برّاقة ومغرية.

ثالثاً: إن اهتمام النبي ﷺ بحلف الفضول إنما يدل على أن الاسلام ليس منغلقاً على نفسه، وإنما هو يستجيب لكل عمل إيجابي فيه خير الانسان، ويشارك فيه على أعلى المستويات، انطلاقاً من الشعور بالمسؤولية، وإنسجاماً مع أهدافه الكبرى، ومع المقتضيات الفطرية والعقل السليم.

رابعاً: إن موقف النبي ﷺ من هذا الحلف ليس إلاّ من أجل تحريك المشاعر وإيقاظ الضمائر للتحالف والتكتل في وجه الظلم والعدوان، والتعاون على الخير والاحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل عصر وزمان، وخاصة إذا انحرف الحاكم واتبع أهواءه واستغل أموال الناس وخيرات البلاد والعباد لمصالحه وأطماعه الذاتية.

تجديد بناء الكعبة:

أول من بنى الكعبة آدم عليه السلام، ثم انهدم البناء فكان ابراهيم عليه السلام أول من رفع قواعده من جديد وأبان اعلامه وذلك بأمر من الله ليكون مركزاً للتوحيد والعبادة، وذلك بعد أن هاجر ابراهيم بزوجته هاجر وولده اسماعيل إلى أرض مكة.

وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك بقوله: ﴿**وإذ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسمَاعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيم**﴾[1].

ومن المعلوم أن بناء الكعبة تضَمَّن حجراً أسوداً قيل: إن ابراهيم أخذه من جبل أبي قبيس في مكة ووضعه في مكانه، وقيل: إنه نزل به جبرائيل من الجنة.

وقد ظلت الكعبة، معبداً للعرب على مرِّ السنين يحجّون إليها ويتعاهدونها بالبناء والترميم كلما دعت الحاجة.

وقيل أنها تهدمت بعد أن مرت عليها القرون الطويلة، فأعاد العمالقة بناءها ثم تهدمت بعد ذلك، فبنتها جرهم وأصبحت في ولايتهم.

ويقول بعض المؤرخين: إن جرهم بغت واستحلّت المحارم فأبادها الله، وانتقلت ولاية الكعبة من بعدها إلى خزاعة، ثم من بعدهم إلى قريش.

في أثناء ولاية قريش عليها وقبل النبوة بخمس سنوات أو أكثر تم هدمها وتجديد بنائها.

ويذكر اليعقوبي روايتين في سبب ذلك:

الأولى: إنها تصدعت من آثار السيول.

---

(١) البقرة. ١٢٧.

الثانية: إن امرأة كانت تبخرها فتطايرت شرارة الى ثوب الكعبة فاحترق، واحترق بابها والأخشاب التي كانت بها.

اثر ذلك اجتمعت قريش وقررت هدمها وتجديد بنائها ورصدوا لذلك نفقة طيبة، ليس فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة مما أخذوه غصباً، أو قطعوا به رحماً، أو انتهكوا فيه حرمة وذمة.

ويقول المؤرخون: إن قريشاً وزعت الهدم والبناء على القبائل، فكان لكل قبيلة جهة معينة، وكان الوليد بن المغيرة أول من بادر الى هدمها بعد أن تهيب غيره من فعل ذلك.

وهكذا بدأت كل قبيلة تجمع الحجارة وتبني الجهة المعينة لها حسب الخطة. ويقال: إن النبي ﷺ شارك في جمع الحجارة.

ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يرفع الحجر الى موضعه، وأصبحت كل قبيلة تريد هي أن تنال شرف رفعه الى موضعه، لأنهم كانوا يرون أن من يضع الحجر في مكانه تكون له السيادة والزعامة.

وكاد الأمر يؤدي بهم الى فتنة كبيرة حيث استعدوا للقتال، وانضم كل حليف الى حليفه، حتى أن بعض القبائل تحالفوا على الموت وغمسوا أيديهم في الدم فسموا لعقة الدم.

ولما وصلوا الى هذا الحد الخطير اقترح عليهم أبو أمية بن المغيرة ـ والد أم سلمة زوجة النبي ﷺ ـ أن يُحكِّموا في هذا النزاع أول داخل عليهم، فكان محمد بن عبد الله أول الوافدين، فلما رأوه استبشروا بقدومه وقالوا: لقد جاءكم الصادق الأمين، أو هذا الأمين قد رضينا به حكماً.

فطلب منهم النبي ﷺ أن يحضروا له ثوباً فأتوا له بثوب كبير، فأخذ الحجر ووضعه فيه بيده، ثم التفت الى شيوخهم وقال: «لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ثم ارفعوه جميعاً» فاستحسنوا ذلك ووجدوا فيه حلاً يحفظ حقوق الجميع، ولا يعطي لأحد امتيازاً على الآخر، ففعلوا ما أمرهم به، فلما أصبح الحجر بمحاذاة الموضع المخصص له، أخذه رسول الله بيده الكريمة ووضعه مكانه.

إن التأمل في وقائع هذه الحادثة يجعلنا نخلص إلى النتائج التالية:

الأولى: إن اشتراط قريش أن تكون نفقة الكعبة طيبة لا ربا ولا غصب فيها ولا

مظلمة لأحد ... إن دلَّ على شيء فإنما يدل على شعور حقيقي بقبح هذه الأمور وعدم رضا الله والوجدان بها، وقد يفسر ذلك أيضاً باقتضاء الفطرة لذلك، وحكم العقل بقبحه.

الثانية: إن ما تقدم يدل على أن أهل مكة كانوا يتعاملون بالمنطق القبلي حتى في تعاونهم على بناء البيت وحمل الحجارة له، وهو أقدس مقدساتهم ورمز عزهم ومجدهم وكرامتهم، بل وعليه تقوم حياتهم، وإن تحالف لعقة الدم حينما اختلفوا فيمن يرفع الحجر الى موضعه، يعتبر الذروة في هذا المنطق الجاهلي الذي يأباه الوعي الانساني وتنبو عنه الفطرة، ويرفضه العقل السليم.

الثالثة: إن فرح قريش حينما رأوا النبي أول داخل عليهم، ثم وصفهم له بأنه «الصادق الأمين» يكشف عن المكانة الاجتماعية الخاصة التي كان يحتلها النبي ﷺ في نفوس الناس في مكة، حتى انهم كانوا يحكمونه في كثير مما كان يقع الخلاف فيه بينهم، ويضعون كل ثقتهم به، وبعقله ووعيه وحكمته.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

علاقته ﷺ بربه / ٢

صومه ﷺ واعتكافه:

نظراً للأهمية البالغة التي يحتلها الصوم في الاسلام، فإن رسول اللّه ﷺ كان شديد التعلق به كأحد الوسائل الأساسية للتقرب إلى اللّه ونيل رضوانه، فإنه ﷺ فضلاً عن ادائه فرض الصيام في شهر رمضان، كان يكثر من الصيام المستحب، فقد صام كل يوم فترة من الزمن، ثم صام يوماً وأفطر يوماً ماشاء اللّه من عمره، ثم صام شعبان والأيام البيض ــ أي ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر ــ من كل شهر، وقد التزم ﷺ صيام شهر شعبان كاملاً وأول خميس وأوسط أربعاء، وآخر خميس من كل شهر.

* فعن الامام الصادق عليه السلام قال: **"كان رسول اللّه ﷺ أول ما بعث يصوم حتى يقال: ما يفطر، ويفطر حتى يقال ما يصوم، ثم ترك ذلك وصام يوماً وأفطر يوماً وهو صوم داود عليه السلام، ثم ترك ذلك وصام الثلاثة أيام الضحى، ثم ترك ذلك وفرقها: في كل عشرة يوماً خميسين بينهم أربعاء، فقبض وهو يعمل ذلك".**

* وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: **"صام رسول اللّه ﷺ الدهر كله ما شاء اللّه، ثم ترك ذلك وصام صيام داود عليه السلام يوماً لله ويوماً له ماشاء اللّه، ثم ترك ذلك، فصام الاثنين والخميس ماشاء اللّه، ثم ترك ذلك وصام البيض ثلاثة أيام من كل شهر"**[١].

* وعنه أيضاً عليه السلام قال: **"كان رسول اللّه ﷺ يصوم شعبان وشهر رمضان يصلهما، ويقول لهما: شهر اللّه وهما كفارة لما قبلهما وما بعدهما من الذنوب"**[٢].

* وعن الامام الصادق عليه السلام: **"كان رسول اللّه ﷺ إذا كان العشر الأواخر (أي من شهر رمضان) اعتكف في المسجد وضربت له قبة من شعر وشمّر المئزر وطوى فراشه"**[٣].

* وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام **"... فلم يزل يعتكف ﷺ في العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه اللّه"**[٤].

* وروي: **كان رسول اللّه ﷺ إذا دخل شهر رمضان أطلق كل أسير، وأعطى كل سائل**[٥].

---

(١) الوسائل: ج٤، ص٣٢١.
(٢) تيسير المطالب: ص٢٧٣.
(٣) الكافي: ج٤، ص١٧٥.
(٤) البحار: ج٩٤، ص٧.
(٥) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٦١.

٥

البعثة النبوية

لقد أعدَّ الله نبيه محمداً ﷺ وهيّأه لحمل الرسالة وأداء الأمانة الكبرى وانقاذ البشرية، وحين بلغ الأربعين من عمره الشريف اختاره الله رسولاً وهادياً للبشرية جمعاء.

والمروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: أن رسول الله ﷺ بعث بالاسلام في السابع والعشرين من شهر رجب بعد عام الفيل بأربعين سنة (٦١٠م).

وقد بدأ نزول الوحي عليه ﷺ بواسطة جبرائيل الأمين عليه السلام في غار حراء ـ وهو كهف صغير في أعلى جبل حراء في الشمال الشرقي من مكة ـ كان النبي ﷺ يتعبد فيه لله على النحو الذي ثبتت له مشروعيته، وكان قبل ذلك يتعبد فيه عبد المطلب.

وتفيد الروايات[١] أن أول آيات قرأها جبرائيل على النبي ﷺ هي قوله تعالى في سورة العلق: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم**﴾[٢].

بعد تلقين ذلك البيان الالهي، عاد النبي ﷺ الى أهله مستبشراً مسروراً بما أكرمه الله به من النبوة والرسالة، مطمئناً إلى المهمة التي شرفه الله بها، فلم يكن خائفاً أو مرعوباً مما جرى له، بل كان عالماً بنبوة نفسه، وكان ينتظر اللحظة التي يأتيه فيها

(١) تفسير البرهان: ج١ ص٢٩.

(٢) العلق: ١ ـ ٥.

جبرائيل ليعلن نبوته ورسالته، فلما دخل على خديجة أخبرها بما أنزله الله عليه وما سمعه من جبرائيل فقالت له: أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلاّ خيراً، وأبشر فإنك رسول الله حقاً.

وقد سئل الامام الصادق عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون مما ينزغ به الشيطان؟

فقال عليه السلام: «**إنَّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار، فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه**»[1].

وسئل عليه السلام: كيف علمت الرسل أنها رسل؟ قال: «**كشف عنهم الغطاء**»[2].

وقال العلامة الطبرسي: إن الله لا يوحي إلاّ بالبراهين النيرة، والآيات البينة، الدالة على أن ما يوحي إليه إنما هو من الله تعالى؛ فلا يحتاج الى شيء سواها، ولا يفزع ولا يفرق[3].

انتشر خبر نزول الوحي على النبي ﷺ في وسط البيت النبوي.. فبادر عدد من الذين وصلهم الخبر الى تصديق النبي ﷺ والايمان برسالته، ويوصف الذين بادروا الى الايمان بـ«السابقين»، وقد اعتبر السبق الى الاسلام امتيازاً، ومعياراً للفضل وعلو المنزلة.

وقد اتفق المؤرخون والمحدثون على أن علي بن أبي طالب عليه السلام هو أول الناس اسلاماً وإيماناً وتصديقاً برسول الله ﷺ، وكان عمره آنذاك عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة.

وقد ورد ذلك في النصوص الصحيحة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام؛ وورد عنهم عليهم السلام إن النبي بعث يوم الاثنين وأن علياً صلى معه يوم الثلاثاء.

وقد أورد العلامة الأميني في كتابه الغدير[4] أقوالاً عن العشرات من كبار الصحابة والتابعين وغيرهم، وعن العشرات من مصادر الفريقين، تؤكد أن أمير المؤمنين عليه السلام هو أول الأمة قاطبة اسلاماً وإيماناً.

وروى الحاكم النيشابوري بسند صحيح عن النبي الأعظم ﷺ أنه قال: «**أولكم وروداً على الحوض أولكم اسلاماً علي بن أبي طالب**» عليه السلام[5].

---

(١) تفسير العياشي: ج٢ ص٢٠١.
(٢) بحار الأنوار: ج١١ ص٥٦.
(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ج١٠ ص٣٨٤.
(٤) راجع: ج٣ وج١٠.
(٥) المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص١٣٦.

وروى أحمد بن حنبل أن النبي قال: «**علي بن أبي طالب أول أصحابي اسلاماً**»[١].

كما أن ابن أبي الحديد المعتزلي روى عن النبي ﷺ أنه أخذ بيد علي وقال: «**هذا أول من آمن بي وصدقني، وصلى معي**»[٢].

وعلي نفسه يصرِّح في أكثر من موقف: أنه أول من أسلم، وأنه لم يسبقه أحد في الصلاة مع رسول الله ﷺ، وأنه الصديق الأكبر، وأنه لا يعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله قبله غير رسول الله ﷺ.

كما أنه عليه السلام احتج على خصومه في مناسبات عديدة بأنه أول من آمن وصدق برسول الله ﷺ، وكذلك فعل اتباعه من الصحابة والتابعين حيث احتجوا على خصومهم في صفين وغيرها بأن إمامهم علي بن أبي طالب عليه السلام أول الناس اسلاماً، ولم نجد أحداً من أعدائه حاول إنكار ذلك، أو التشكيك فيه، أو طرح اسم بديل عنه، بالرغم من توافر الدواعي والمقتضيات السياسية والمذهبية وغيرها لطرح اسم رجل آخر على أنه صاحب هذه الفضيلة دون علي عليه السلام.

إن احتجاجه واحتجاج أصحابه على خصومهم بأنه أول من أسلم دون أن يجرؤ أحد على الإنكار، يدل دلالة واضحة ليس على كون علي عليه السلام هو أول من آمن في هذه الأمة فحسب، بل على أن أسبقية علي للاسلام كانت من الأمور المسلمة لدى جميع الناس آنذاك.

ومن المسلمات التاريخية أيضاً، أن خديجة بنت خويلد زوجة النبي الأولى كانت أول امرأة آمنت وصدقت برسول الله ﷺ، وقد صلّت مع رسول الله في اليوم الثاني من مبعثه، وما على وجه الأرض أحد يعبد الله على هذا الدين إلاّ النبي وعلي بن أبي طالب.

والذي يبدو من النصوص أن علياً عليه السلام سبق خديجة إلى الإسلام، وهذا ما يظهر من كلمة «أول الناس اسلاماً» أو «أول الأمة اسلاماً» الواردة في أحاديث النبي ﷺ.

أما كيف يسبق علي عليه السلام حتى زوجة رسول الله ﷺ التي يفترض أنها ألصق الناس به؟ فيتضح ذلك لو عرفنا أن علياً عليه السلام كان ملازماً لرسول الله ﷺ لا يفارقه حتى وهو في غار حراء.

---

(١) مسند أحمد: ج٥ ص٢٦.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج١٣ ص٢٢٥.

يقول عليه السلام وهو يصف حاله مع رسول الله ﷺ: «**ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلاّ أنك لست بنبي ولكنك الوزير وإنك لعلى خير**»[1].

وبعد كل ما تقدم نعرف: أن إدعاء سبق غير علي عليه السلام إلى الإسلام، إدعاء غير صحيح تبطله كل النصوص والحقائق التي ذكرناها.. على أن هذا الإدعاء قد جاء متأخراً عن عهد الخلفاء الأربعة، وتمت صياغته بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ولربما يكون قد حصل ذلك حينما كتب معاوية إلى ولاته على الأقطار يأمرهم أن لا يدعوا فضيلة لعلي عليه السلام إلا ويأتوه بمثلها لغيره من الصحابة.

ومن هنا، فإننا نعتقد: بأن القول بأولية إسلام بعض الصحابة غير علي عليه السلام موضوع في وقت متأخر تزلفاً للأمويين.

وأما القول بأن علياً عليه السلام هو أول من أسلم من الصبيان لا من الرجال. فهو قول عجيب، وذلك لما يلي:

أولاً: أنه قد جاء في بعض النصوص المروية عن علي عليه السلام وعن غيره التعبير: بأنه «أول رجل أسلم»، ففي سيرة المورخ الشهير ابن اسحاق[2] (ت١٥١) أن علياً عليه السلام أول الرجال إسلاماً، مما يعني أنه كان حينئذٍ رجلاً بالغاً.

ثانياً: أنه وإن كان الأرجح أن علياً عليه السلام قد أسلم وعمره عشر سنوات أو اثنتا عشرة سنة، إلا أنه من الواضح: أن الرجولية والبلوغ لا ينحصر بالسن، فقد يكون الإنسان رجلاً بالغاً وسنّه لم يتجاوز الثانية عشرة، فان عمرو بن العاص ـ كما يقولون ـ كان يكبر ولده عبد الله باثنتي عشرة سنة فقط، والراشد بالله قد وطأ جارية وهو إبن تسع سنين، فحملت منه كما يدعون.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة:١٩٢.

(٢) سيرة ابن اسحاق: ص١٣٨.

على أن ثمة أقوالاً كثيرة في سنّ علي عليه السلام حين إسلامه، فالحافظ بن عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، والمحدث الكليني، والحسن البصري، والأسكافي وغيرهم كثير، يذكرون في سن علي رقماً يتراوح بين ١٢ سنة إلى ١٦ سنة، وبعضهم يتجاوز ذلك أيضاً، فكيف يصح وصفه بالصبي؟!

ثالثاً: إن سنّ البلوغ قد حددت بعد الهجرة في غزوة الخندق، في قضية ردّ ابن عمر وقبوله في الغزو، أما قبل ذلك فقد كان المعتمد هو التمييز والإدراك، وعليه يدور مدار التكليف والدعوة إلى الإسلام والإيمان وعدمه. ولولا أن أمير المؤمنين عليه السلام كان في مستوى الإسلام والإيمان، لم يقدم النبي الأعظم ﷺ على دعوته إلى الإسلام ثم قبوله منه، وإلا لكان ذلك سفهاً، ولا يمكن صدور السفه من الرسول الأكرم ﷺ.

رابعاً: لو كان الأمر كما ذكروه، فلا يبقى معنى لقول النبي ﷺ عنه: «إنه أول من أسلم» أو «أولكم إسلاماً» فإن معنى ذلك هو أن أوليته بالنسبة إلى النساء والرجال والعبيد والأحرار على حد سواء.

خامساً: وأخيراً، فإننا لم نجد أحداً واجه احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام والصحابة والتابعين بحجة من هذا القبيل.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

علاقته ﷺ بربه / ٣

تلاوته ﷺ لكتاب اللّه:

القرآن كتاب اللّه الذي نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وقد تكفل القرآن من خلال آياته المباركة بهداية الناس إلى الحق والعدل والخير في جميع شؤونهم "**ومن ابتغى الهُدى في غيره، أضله اللّه، فهو حبل اللّه المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء**".

وقد شدد الإسلام على الاهتمام به والاعتصام بحبله من خلال قراءته وتدبره ووعي تعاليمه وتجسيد مفاهيمه في الحياة الفردية والاجتماعية وغيرها.

قال تعالى: ﴿**هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين**﴾ آل عمران/١٣٨.

ونظراً لمكانة القرآن في الإسلام فقد كان رسول اللّه ﷺ شديد العناية به: تلاوة وتعليماً وحضّاً على تعاهده ورعايته. وكان هدفه من تلاوة القرآن ان يحرز المزيد من القربى إلى اللّه سبحانه، وليكون قدوة للمؤمنين في تعاهد أمره، وتدبر آياته، والحرص عليه.

وهذه بعض الروايات التي تشير إلى مدى اهتمامه ﷺ بالقرآن:

* كان ﷺ لا يرقد حتى يقرأ المسبحات ويقول: في هذه السور آية هي أفضل من ألف آية، قالوا: وما المسبحات؟ قال ﷺ: سورة الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن.

* وعن أُم هانيء: كنت أسمع قراءة النبي ﷺ بالليل وأنا على عريشي.

* وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ لا يحجزه عن قراءة القرآن إلا الجنابة.

* ولشدة تفاعله مع القرآن كان يبكي عندما يقرأ بعض آياته، فقد روى ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ لي: إقرأ عليَّ القرآن، فقلت: يا رسول اللّه أقرأ عليك وعليك أُنزل؟! فقال ﷺ: إني أحب أنْ أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أُمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**﴾، قال ﷺ: حسبك الآن، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.

*ولكثرة ما كان يقرأ من القرآن يشير انس بن مالك فيقول: إن رسول اللّه ﷺ وجد شيئاً من وجع، فقيل له: يا رسول اللّه اشتد عليك الوجع، وإنا نرى أثر الوجع عليك.

فقال ﷺ: أما مع ما ترون، فقد قرأت البارحة السبع الطوال ــ أي من البقرة إلى الانفال.

وهكذا كان ﷺ دؤوباً على تلاوة كتاب اللّه، شغوفاً به، فلم يترك القراءة حتى في حالات مرضه.

٦

ما بين البعثة والهجرة ـ ١

الدعوة وتحديات قريش:

مرت الدعوة الاسلامية في حياة النبي ﷺ منذ بعثته الى وفاته بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى. (الدعوة الهادئة للأفراد):

كانت دعوة النبي ﷺ في البداية تتجه نحو آحاد الناس بصورة هادئة بعيداً عن أجواء التحدي وذلك حذراً من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها، فلم يكن ﷺ يُظهر الدعوة في المجالس العامة لقريش، ولم يكن يدعو إلاّ من يغلب على الظن أنه سيؤمن به، فآمن به عدد قليل من الناس تباعاً، وكان هؤلاء يلتقون بالنبي ﷺ باستمرار، وكانوا إذا أرادوا ممارسة العبادة والصلاة تعرضوا للأذى، فصاروا يذهبون الى شعاب مكة يستخفون فيها عن أنظار قريش، فصاروا يلاحقونهم إلى هناك، وبعد ان مرت ثلاث سنوات تقريباً.. وصارت تحدث صدامات بينهم وبين المشركين الذين كانوا يرصدونهم ويتعمدون إيذائهم، اختار النبي ﷺ لهم دار الارقم بن أبي الأرقم في مكة ليلتقي بهم فيها، ولتكون مركزاً يمارسون فيه عبادتهم وصلاتهم بعيداً عن أنظار قريش.

وبعد شهر من دخولهم دار الأرقم، أمره الله تعالى بالجهر في دعوته وبإظهار دينه بقوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾[2].

---

(١) الشعراء. ٢١٤.

(٢) الحجر. ٩٤.

وكانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة عامتهم من الفقراء.

«ولا ريب أن حكمة النبي ﷺ في دعوته الى الاسلام ودعوة الأفراد بصورة هادئة خلال هذه السنوات الأولى، لم يكن بسبب الخوف على نفسه، بل خوفاً على مستقبل الدعوة من أي نشاط إرهابي يقضي عليها وهي لما تكتمل بعد ولم تترسخ لكي تصمد أمام أي معارضة أو مواجهة سافرة، قد يتهددها بالفناء.

فكانت نتيجة هذا الأسلوب الذي اتبعه الرسول ﷺ في دعوته أمرين:

الأول: عدم تعريض الطليعة المؤمنة، لأي عمل ارهابي يشل الحركة ويفكك ارتباطها ومن ثم يدفعها إلى التشرذم والضياع.

الثاني: توفير العدد الكافي من المؤمنين بالرسالة، لكي تتحمّل مسؤولياتها في التغيير الاسلامي بجدارة وإيمان».

ولذلك فإن هذه المرحلة، كانت بمثابة إعداد نفسي وتربية عقيدية وروحية وجهادية لتلك الصفوة التي دخلت في الاسلام، وكان لا بدّ منها ليتسنى للنبي القيام بمثل هذه التربية التي تُمكّن المؤمنين من الصمود في وجه التحديات التي تنتظرهم.

المرحلة الثانية. (الدعوة العامة):

وفي هذه المرحلة استجاب الرسول ﷺ لقوله تعالى: ﴿**وانذر عشيرتك الأقربين**﴾ وقوله تعالى: ﴿**فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين**﴾، وبدأ بتنفيذ أمر ربه بالدعوة العامة عبر خطوتين:

الخطوة الأولى: دعوة الأقربين من عشيرته وقومه ـ هم بنو هاشم أو بنو عبد المطلب ـ إلى الاسلام وإبلاغهم رسالة الله تعالى تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿**وانذر عشيرتك الأقربين**﴾ ومما قاله لهم بعد أن جمعهم في بيته وكانوا أربعين رجلاً:

يا بني عبد المطلب إني لكم نذير من الله عز وجل، إني أتيتكم بما لم يأت به أحد من العرب، فإن تطيعوني ترشدوا، وتفلحوا، وتنجحوا... فمن كفر بعد ذلك منكم فإن الله يعذّبه عذاباً شديداً.. واتقوا الله واسمعوا ما أقول لكم، واعلموا يا بني عبد المطلب أن الله لم يبعث رسولاً إلاّ جعل له أخاً ووزيراً ووصياً ووارثاً من أهله، وقد جعل لي وزيراً كما جعل للأنبياء من قبلي... لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن

أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم من بعدي.

فأحجم القوم عن الكلام غير علي عليه السلام الى ثلاث مرات، فلما رأى النبي سكوتهم وإصرار علي على الاجابة أخذ برقبته وقال: إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا..

إن الإبتداء بذوي القرابة والعشيرة يهدف الى:

أولاً: تثبيت أولى دعائم الدعوة، لأنه إذا استطاع أن يستقطب عشيرته الأقربين الى الاسلام يستطيع بعد ذلك أن يتوجه الى غيرهم بقدم ثابتة وعزم راسخ وإرادة مطمئنة.

ثانياً: دفع أبناء عشيرته الى الدفاع عنه بدافع القرابة على فرض أنهم لم يؤمنوا بدعوته.

ثالثاً: بلورة مدى استعداد البنية الداخلية من أقربائه وقومه للوقوف الى جانبه والتحمل معه، ليتم من خلال ذلك تقدير المواقف المستقبلية في مواجهة التحديات.

رابعاً: التأكيد على أن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام من الآن فصاعداً ركن من أركان هذا الدين.

الخطوة الثانية: دعوة عامة الناس بمن فيهم قريش إلى الدخول في الاسلام.

فقد ذكر المؤرخون: أنه بعد أن أنذر النبي ﷺ عشيرته الأقربين، وانتشر أمر نبوته في وسط مكة، بدأت قريش تتعرض للنبي ﷺ بالاستهزاء والسخرية والتكذيب، وكان من جملة الذين استهزؤا به عمه أبو لهب، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾[1] وكانت هذه الآية تمثّل الأمر بإعلان الدعوة أمام جميع الناس مهما كانت النتائج، وقد وعده الله فيها بأنه سيكفيه المستهزئين ويتولى هو عز وجل أمرهم. فكانت الخطوة الثانية تنفيذاً لأمر الله في الآية، حيث صعد النبي على الصفا ونادى قريشاً وقبائل مكة فلما اجتمعوا قال لهم: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً في سفح جبل قد طلعت عليكم أكنتم مصدقي؟»، قالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط. فقال: «**إني نذير لكم من عذاب شديد، إن**

(١) الحجر . ٩٥.

الله أمرني أن أنذركم من عقابه، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلاّ أن تقولوا لا إله إلا الله».

ردود فعل قريش:

كان رد فعل قريش أمام جهره ﷺ بالدعوة، أن أدبروا عنه وتنكَّروا لدعوته، وبدأوا يحاولون بشتى الأساليب القضاء على حركته، وأهم المحاولات التي قاموا بها هي:

١ ـ مواجهة النبي ﷺ بالتكذيب، والسخرية، والاستخفاف والاستهزاء، ورميه بأنواع التهم من قبيل ساحر ومجنون، وكان ذلك هو رد الفعل الأولي، ولم يصل رد الفعل هذا الى حد المواجهة المباشرة، إلاّ أن استمرار النبي ﷺ بالدعوة وإصراره عليها من جهة، وتعرضه لآلهة قريش وأصنامها من جهة أخرى، واتساع نشاط النبي وتكاثر المسلمين باستمرار من جهة ثالثة، جعل المشركين يشعرون بجدية الموقف وخطورته والتفكير في محاولة جديدة بعيدة عن العنف، فقرروا:

٢ ـ مفاوضة النبي ومساومته على الدعوة، وقد مرت المفاوضات بثلاث جولات انتهت كلها بالفشل الذريع.

في الجولة الأولى: حاولت قريش استعطاف أبي طالب من أجل الضغط على ابن أخيه فقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل أبناءنا، فاما أن تكفه عنا واما أن تخلي بيننا وبينه، فردهم أبو طالب رداً رفيقاً على حد تعبير الطبري، فانصرفوا عنه وواصل النبي ﷺ دعوته.

وفي الجولة الثانية: تواصت قريش بالشدة وعدم المهادنة في الموقف فجاؤا الى أبي طالب وقالوا له: إنا كنا قد استنهيناك عن ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه آرائنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين، فوعدهم أبو طالب أن يبلغ ابن أخيه موقفهم، فكان رد النبي ﷺ ذلك الرد الخالد: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

وفي الجولة الثالثة: عرضوا على أبي طالب أن يعطيهم محمداً ليقتلوه ويأخذ هو في مقابله عمارة بن الوليد أجمل فتى في قريش! ليكون في رعايته وكفالته بدل محمد،

فرفض أبو طالب موبخاً لهم بقوله: لبئس ما تسومونني عليه أتعطوني ابنكم اغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً.

٣ـ مفاوضة النبي ﷺ ومساومته مباشرة عن طريق اغرائه بالمال والجاه، ولكن النبيﷺ رفض عرضهم، ورأوا فيه رجلاً من نوع آخر لا طمع له في مال ولا سلطان.

٤ـ نهي الناس عن الالتقاء بالنبي ﷺ والاستماع الى ما يتلوه من قرآن، وقد تحدث القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[1].

٥ـ التعرض لشخص النبي ﷺ بالإيذاء المباشر، حيث رجموا بيته بالحجارة، وألقوا التراب على رأسه، وسلّطوا الصبيان عليه يرمونه بالحجارة، وقد تعرض النبي لأذى لا مثيل له من سفهاء قريش وعبيدهم، وأحياناً من زعمائهم ووجهاءهم كأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب وزوجته التي كانت تضع الأشواك أمامه في طريقه وأمام داره حتى قال ﷺ: ﴿**ما أوذي نبي ما أوذيت**﴾.

٦ـ اتباع سياسة الارهاب والتعذيب والتنكيل بالصفوة المؤمنة وخاصة بأولئك الفقراء والضعفاء، الذين لا عشيرة تحميهم كآل ياسر، وبلال الحبشي، وعامر بن فهيرة، ومصعب بن عمير وغيرهم.

وقد ضرب هؤلاء المثل الأعلى في الصمود والصبر والثبات والجهاد والتضحية من أجل العقيدة والمبدأ والحق.

٧ـ استخدام سلاح الحرب الاعلامية والدعاية ضد النبي ﷺ بكل ما تقتضيه من مجادلة ومهاترة وترويج اشاعات كاذبة، فقد كانوا يروجون بين الوافدين الى مكة: إن هذا الرجل ساحر، وأنه يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، وأن ما يأتي به إنما يتعلمه عند رجل نصراني اسمه جبر، وقد ردّ عليهم القرآن بقوله تعالى: ﴿**ولقد نعلم إنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾[2].

---

(١) فصلت ـ ٢٦.

(٢) النحل ـ ١٠٣.

٨ـ المقاطعة لبني هاشم، وفرض حصار اجتماعي واقتصادي عليهم، وهو ما عرف بحصار الشعب، فقد اجتمع المشركون في دار الندوة وكتبوا وثيقة اتفقوا فيها على البنود التالية:

١ ـ أن لا يزوجوا أحداً من نساءهم لبني هاشم، وأن لا يتزوجوا منهم.

٢ ـ أن لا يبتاعوا منهم شيئاً، ولا يبيعوهم شيئاً مهما كان نوعه.

٣ ـ أن لا يجتمعوا معهم على أمر من الأمور.

٤ ـ أن يكونوا يداً واحدة على محمد وأتباعه.

قدَّرتْ قريش أن هذا الحصار سيؤدي إلى أحد ثلاثة أمور: إما قيام بني هاشم بتسليمهم النبي ليقتلوه، وإما أن يتراجع النبي عن الدعوة، وإما القضاء عليه وعلى جميع من معه جوعاً وعطشاً تحت وطأة الحصار.

استمر الحصار ثلاث سنوات من السنة السادسة حتى التاسعة للبعثة، وكان المسلمون خلاله ينفقون من أموال خديجة، وأبي طالب، حتى نفدت واضطروا ان يقتاتوا بورق الشجر، ولم يكونوا يجسرون على الخروج من شعب أبي طالب إلا في موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة، فكانوا يشترون حينئذٍ ويبيعون ضمن ظروف صعبة جداً.

وكان علي أمير المؤمنين عليه السلام أثناء هذه المحنة يأتيهم بالطعام سراً من مكة من حيث يمكن، ولو أنهم ظفروا به لم يُبقوا عليه.

وكان أبو طالب (رض) يحرس النبي ﷺ بنفسه خوفاً من أن يتسلل أحد من المشركين إليه ويغتاله على حين غرة أو غفلة، بل كان إذا حلَّ الظلام ينقل النبي من المكان الذي عرف أهل الشعب انه بات فيه إلى مكان آخر ويجعل ابنه علياً عليه السلام في مكان النبي ﷺ حتى اذا حصل أمرٌ أُصيب ولده دونه.

انتهى الحصار بعدما أكلت الإرضة ما في صحيفة المشركين التي تعاقدوا فيها على الحصار، وقيام جماعة منهم ممن تربطهم ببني هاشم علاقات نسبية بنقض الصحيفة وإلغاء مفاعيلها.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

علاقته ﷺ بربه / ٤

أذكاره وتسبيحه:

كان رسول الله ﷺ يكثر من ذكر الله بل ما فارق ذكر اللّه شفتيه المباركتين قط، ولم يُرى إلا ذكراً مسبحاً أو شاكراً مستغفراً.

روى عنه ﷺ انه كان يكثر من قول: سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم.

ويقول ﷺ: اني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة.

وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: "**كان رسول اللّه ﷺ لا يقوم من مجلس وإن خفَّ حتى يستغفر اللّه خمساً وعشرين**".

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: "**كان رسول اللّه ﷺ يستغفر اللّه عزّ وجلّ في كل يوم سبعين مرة ويتوب إلى اللّه عزّ وجلّ سبعين مرة**".

وعنه عليه السلام أيضاً: "**كان رسول اللّه ﷺ يتوب إلى اللّه في كل يوم سبعين مرة من غير ذنب، كان يقول: أتوب إلى اللّه**".

وكان ﷺ يقول: "**إن للقلوب صداء كصداء النحاس فاجلوها بالاستغفار**".

وكما كان دائم الاستغفار كان دائم الشكر للّه سبحانه على كل حال.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: "**كان رسول اللّه ﷺ إذا رأى ما يحب قال: الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات**".

وعن الامام الصادق عليه السلام: "**كان رسول اللّه ﷺ اذا ورد عليه أمر يسره قال: الحمد للّه على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتم به قال: الحمد للّه على كل حال**".

وعنه عليه السلام: "**كان رسول اللّه ﷺ يحمد اللّه في كل يوم ثلاثمائة وستين مرة يقول: الحمد للّه رب العالمين كثيراً على كل حال**".

وعن علي عليه السلام: "**كان رسول اللّه ﷺ إذا أتاه أمر يسرّه قال: الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أتاه أمر يكرهه قال: الحمد للّه على كل حال**" (أمالي الطوسي ج ١ ص ٤٩).

وعنه عليه السلام قال: "**ما استيقظ رسول اللّه ﷺ من نوم قط إلا خرَّ للّه عزّ وجلّ ساجداً**".

وعن علي عليه السلام: "**كان النبي في كل يوم إذا أصبح وطلعت الشمس يقول: الحمد للّه رب العالمين كثيراً طيباً على كل حال يقول ثلاثمائة وستين مرة شكراً**" (أمالي الطوسي ج ٢ ص ٢١٠).

٧

ما بين البعثة والهجرة ـ ٢

مواجهة تحديات قريش:

اتبع النبي ﷺ في مواجهة محاولات قريش للقضاء على الاسلام، الخطوات التالية:

١ ـ رَفْضُ كلِّ أشكال المساومات والضغوط، والاصرار على الاستمرار في الدعوة، والثبات والصبر على الأذى والتحديات.

٢ ـ الاتصال الشخصي والمباشر بكل الأفراد والجماعات الوافدة الى مكة، وعَرْضُ الاسلام عليهم وعلى سائر القبائل، خاصة في المواسم، فكان لا يسمع بقادم الى مكة له اسم وشرف ونفوذ إلاّ وبادر الى اللقاء به، وكان لا يدع مناسبة يجتمع فيها الناس إلاّ قصدهم إلى أنديتهم ليدعوهم الى الله.

٣ ـ توسيع دائرة الدعوة الى خارج مكة وذلك من خلال أمر المسلمين بالهجرة الى الحبشة، وخروجه هو ﷺ الى الطائف، وإنجاز بيعة العقبة.

الهجرة الى الحبشة:

هاجر المسلمون الى الحبشة في رجب من السنة الخامسة للبعثة بعدما أمرهم النبي بذلك وقال لهم: إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وكان عددهم في أرض الحبشة ثلاثة وثمانين ما بين رجل وامرأة عدا الأطفال، وكان في مقدمتهم جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ.

ونعتقد أن الهدف من هذه الهجرة:

أولاً: التخلص من الضغوط وسياسة الارهاب والتعذيب التي كان يتعرض لها المسلمون داخل مكة، وإيجاد مكان آمن للمسلمين ولكل من يدخل في الإسلام يستطيعون فيه ممارسة شعائرهم بحرية، بعيداً عن أذى قريش ومضايقاتها واضطهادها.

ثانياً: التبشير بالاسلام ومبادئه وأهدافه وأحكامه، والترويج له والتعريف به خارج الجزيرة العربية، بدليل: هجرة جماعة ممن لم يتعرض للتعذيب أو التنكيل، كجعفر بن أبي طالب من جهة، وبقاء المهاجرين في الحبشة الى ما بعد السنة الثالثة أو السابعة بعد الهجرة النبوية إلى المدينة من جهة أخرى.

ثالثاً: توجيه ضربة لكبرياء قريش، ولتدرك أن قضية الاسلام تتجاوز حدود تصوراتها وقدراتها، وأن المسلمين قادرون على تجاوز حدود الوطن والتخلي عن كل شيء في سبيل انقاذ عقيدتهم واسلامهم.

الخروج الى الطائف:

خرج النبي الى الطائف في السنة العاشرة من البعثة وأقام فيها عشرة أيام يتجول بين أحيائها ويدعو أهلها الى الاسلام، ولكنهم لم يسمعوا منه، بل جلسوا في الطريق يرمونه بالحجارة حتى جرح في رأسه، فانصرف رسول الله ﷺ راجعاً الى مكة.

وقد كان يهدف النبي ﷺ من الانتقال الى الطائف إلى الإعداد الى المستقبل باعتبار أن الطائف هي البلد الثالث الذي له موقعه ونفوذه الخاص في المنطقة نظراً لوجود قبيلة كبيرة فيها هي ثقيف، فلا بد من التمهيد إلى إسلامهم في المستقبل.

وربما تكون ثمة أهداف أخرى منها: إيجاد قاعدة ارتكاز لدعوته في الطائف بدل مكة، بعد أن وجد ﷺ أن مكة لا تصلح أن تكون قاعدة لعمله الرسالي، وخصوصاً بعدما أثّرت عمليات التعذيب والارهاب التي مارستها قريش بحق المسلمين في التأثير على نشاط النبي ﷺ والحد من انتشار الاسلام بين الناس.

بيعة العقبة:

بعد أن عاد النبي ﷺ من الطائف استأنف جهوده عند حلول موسم الحج متنقلاً بين

وفودها، حيث اجتمع بستة من أهل يثرب ـ المدينة ـ في السنة الحادية عشرة من البعثة، فدعاهم لرسالته، فآمنوا به، وأقسموا أن يعملوا في سبيلها عند عودتهم الى بلدهم.

ولم يكن اجتماعه بهؤلاء الستة عملاً عفوياً، بل كان مقصوداً، حيث اجتمع بهم بشكل شبه سري، وركّز على عدد محدود، لا كما فعل مع باقي الوفود حيث كان يدعوها علانية.

واستهدف الرسول ﷺ من هذا الاجتماع حث هؤلاء الاشخاص على القيام بنشاط في بلادهم لتهيئة الجو وخلق مناخ مؤيد ومتعاطف مع الدعوة ومبادئها الجديدة في المدينة.

العقبة الأولى:

وعندما حل موسم الحج في العام الثاني التقى ﷺ مع اثني عشر رجلاً من اليثربيين، واجتمع بهم سراً في واد ضيق بالعقبة بين مكة ومنى، وهي العقبة الأولى، وقد أعلنوا فيها إيمانهم واستعدادهم للعمل على نشر الاسلام، وبايعوا رسول الله على ذلك.

فلما أرادوا الانصراف إلى بلدهم، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير من أجل أن يعلمهم الاسلام، ويفقههم في الدين، ويجعل منهم قوة أكثر فاعلية ودقة في نشر الدين الجديد في صفوف أهل المدينة.

استطاع مصعب بن عمير بفعل وعيه وخبرته بشتى أساليب العمل والتبليغ أن يقوم بواجبه كما أراد رسول الله ﷺ.. وكان عدد المسلمين في المدينة يزداد يوماً بعد يوم، وأصبح جو المدينة العام مؤيداً للرسول ﷺ، ومهيئاً لقدومه.

العقبة الثانية:

وفي العام التالي أي في السنة الثالثة عشرة من البعثة وبعد مرور عام كامل على بيعة العقبة الأولى عاد مصعب بن عمير الى مكة ومعه جمع كبير من مسلمي المدينة، خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين.. ويبدو أن مصعباً قبل حضوره الى مكة، كان قد رتّب اجتماعاً بين الرسول ﷺ وبين مسلمي يثرب بعد انتهاء موسم الحج.

فالتقى بعضهم بالنبي ﷺ وواعدهم أن يجتمع بهم في العقبة في اليوم الثاني من أيام التشريق ليلاً، وأمرهم بالحفاظ على سرية الاجتماع، وفي الليلة المعينة تمّ الاجتماع

بحضور عليعليه السلام والحمزة في الدار الذي كان ينزل فيه الرسول ﷺ وهو دار عبد المطلب، فبايعوه على حمايته، وعلى أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، وعلى أن ينصروه ويقفوا الى جانبه في الشدة والرخاء، كما بايعوه على السمع والطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن يدعوا الى الله ولا يخافوا في الله لومة لائم، وقد سميت هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية.

لقد نجح النبي ﷺ في نهاية المطاف بفعل إصراره على مواصلة الدعوة وعدم يأسه أو استسلامه أمام الفشل الظاهري في الطائف وفي مكة، وبفعل الثقة بوعد الله سبحانه بالنصر، في ايجاد القاعدة المناسبة التي يرتكز عليها الاسلام فكانت يثرب موضع اختياره الجديد.

وكانت بيعة العقبة هي الخطوة الرئيسية التي مهّد فيها النبي ﷺ للهجرة الى المدينة المنورة، وبالهجرة الى المدينة تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهي مرحلة بناء الدولة، والدفاع عن الاسلام.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الشخصي ـ ١

كان أمير المؤمنين عليه السلام اذا وصف رسول الله ﷺ قال: كان أجود الناس كفاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعرفه أحبه، لم أرى مثله قبله ولا بعده.

وعن يونس عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً.

وقال الديلمي في الارشاد: كان ﷺ لا يمنعه الحياء ان يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويسلم على من استقبله من غني وفقير وكبير وصغير، ولا يحقر ما دعي إليه ولو إلى حشف التَّمر، وكان خفيف المؤنة، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، ومحزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم، ولم يتجشأ من شبع قط، ولم يمد يده إلى طمع قط.

وقال العلماء في اخلاقه الفردية: كان النبي ﷺ: أسخى الناس، لا يثبت عنده دينار ولا درهم، فإن فضل ولم يجد من يعطيه ويجنه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرء منه إلى من يحتاج إليه.

لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت طعامه فقط من يسير ما يجد من التمر والشعير.

وكان يجلس على الأرض وينام عليها ويأكل عليها، وكان يخصف النَّعل، ويرقّع الثوب، ويفتح الباب، ويحلب الشَّاة، ويعقل البعير فيحلبها، ويطحن مع الخادم إذا أعيا (تعب).

وكان ﷺ أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضاً، وكان أصبر الناس على أوزار الناس.

وعن أنس بن مالك قال: لم يكن رسول الله ﷺ سباباً ولا فحاشاً ولا لعاناً، كان يقول لأحدنا عند المعاتبة: ما له ترب جبينه.

وكان رسول الله ﷺ: إذا جلس جلس القرفصاء، ولم يرَ متربعاً قط، ولا جلس منكئاً.

وكان أكثر طعامه التَّمر والماء، وروي انه كان لا يأكل وحده ما يمكنه.

وكان إذا أكل سمّى، ويأكل بثلاث أصابع وما يليه ولا يتناول من بين يدي غيره، ويؤتى بالطعام فيشرع قبل القوم ثم يشرعون، وذلك لكي لا يستحي أحد من تناول الطعام إذا هو كفَّ عنه.

وما ذمَّ رسول الله ﷺ طعاماً قط. وكان إذا أعجبه أكله وإذا كرهه تركه. بل في بعض الروايات: كان يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد. وما رؤي يأكل متكئاً قط.

وكان إذا فرغ من طعامه لعق أصابعه التي أكل بها. وكان ﷺ يغسل يديه من الطعام حتى ينقيهما فلا يوجد لما أكل ريح.

وكان ﷺ لا يلبس ثوبين. ويلبس الغليظ من القطن والكتان. إذا لبس جديداً أعطى خُلف ثيابه مسكيناً.

وكان يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده. لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس.

وكان يركب ما أمكنه من فرس أو بغلة أو حمار.

٨

الهجرة إلى المدينة

بعد بيعة العقبة سمح النبي ﷺ للمسلمين وخاصة لأولئك الذين كانوا يتعرضون للإيذاء والضغوط بالهجرة الى المدينة، وقال لهم فيما يروى عنه ﷺ: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها.

فأخذ المسلمون يتوافدون الى المدينة أفراداً وجماعات سراً وعلانية، مضحين بوطنهم وبعلاقاتهم وكثير منهم بممتلكاتهم ومكانتهم في مجتمعهم الجاهلي في سبيل عقيدتهم ودينهم.

ورأت قريش في هذه الهجرة خطراً على وجودها ومستقبلها لما يشكله المهاجرون مع أهل المدينة من قوة تستطيع أن تقف في وجه قريش ومصالحها، خاصة أن تجارتها الى الشام تمر عبر المدينة، فأخذت تمنع المسلمين من الهجرة وتلاحقهم وتُلحق العذاب والارهاب بكل من كان يقع في قبضتها.

وبرغم كل هذه الاجراءات تمكَّن معظم المسلمين من الهجرة، ولم يبق في مكة بعد بيعة العقبة بفترة وجيزة سوى النبي ﷺ وعلي عليه السلام وعدد قليل من المسلمين المستضعفين.

بقي النبي ﷺ في مكة ينتظر الاذن الالهي بالهجرة، وشعرت قريش بحجم الخطر فيما لو التحق النبي ﷺ بأصحابه، خاصة بعدما قدَّرتْ أن المدنيين سيحمونه وينصرونه بكل طاقتهم بعدما بايعوه على السمع والطاعة والجهاد، فاتخذت قراراً حاسماً بالتخلص من النبي ﷺ قبل فوات الآوان، واستطاعت أن تنتزع قراراً بمشاركة كل قبائل

قريش في عملية الاغتيال، من أجل أن يتفرق دمه في القبائل كلها فلا يعود بإمكان بني هاشم أن يثأروا لدمه.

ولكن الله أخبر رسوله بهذه المؤامرة، وأمره بالخروج ليلاً من مكة وأن يجعل علياً عليه السلام مكانه ليبيت على فراشه من أجل التمويه والايهام، ليفوِّت عليهم كيدهم، فخرج رسول الله إلى غار ثور وبات علي عليه السلام على فراش رسول الله تلك الليلة، وعندما اقتحم المشركون دار النبي ﷺ وجدوا أنفسهم أمام علي عليه السلام وكان النبي ﷺ قد خرج قبل ذلك من بينهم وهو يقرأ هذه الآية: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾[1] وتوجه نحو غار ثور حيث بقي في الغار ثلاثة أيام الى أن تمكن من الوصول الى قرية قباء فالمدينة المنورة برغم ملاحقة قريش له.

وقد تحدث القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَو يَقْتُلُوكَ أَو يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم**﴾[3].

وكانت هجرة النبي ﷺ في شهر ربيع الأول بعدما كان أمضى ثلاث عشرة سنة في مكة، وكانت هذه الهجرة بداية التاريخ الاسلامي.

دوافع الهجرة:

لم تكن الهجرة الى المدينة رد فعل لاضطهاد قريش بل كانت فعلاً خطط له النبي ﷺ لتكون المدينة قاعدة ارتكاز للدعوة.

وأهم الدوافع التي أدت للهجرة هي:

أولاً: إن مكة لم تعد مكاناً صالحاً للدعوة فقد حصل النبي منها على أقصى ما يمكن الحصول عليه ولم يبق بعد أي أمل في دخول فئات جديدة في الدين الجديد في المستقبل القريب على الأقل، خصوصاً بعدما نجحت قريش في وضع الحواجز

(١) ياسين. ٩. (٣) التوبة. ٤٠.
(٢) الأنفال. ٣٠.

والعراقيل الكثيرة أمام تقدم هذا الدين وانتشاره، لذلك كان لا بدّ من الانتقال إلى مكان آخر ينطلق الاسلام فيه بحرية بعيداً عن ضغوط قريش، وفي منأى عن مناطق سيطرتهم ونفوذهم.

وثانياً: إن الاسلام دين كامل ونظام شامل، يعالج في تشريعاته جميع جوانب الحياة، وهو للبشرية جمعاء وما حصل عليه النبي ﷺ في مكة بعد ثلاث عشرة سنة لا يمكّنه من تطبيق كافة تشريعات الاسلام، على البشرية كلها. وتحقيق كامل أهدافه، ولا سيما بالنسبة الى ذلك الجانب الذي يعالج مشاكل الناس الاجتماعية والسياسية وغيرها، مما يحتاج الى السلطة في مجال فرض القانون والنظام، فكان لا بد من الانتقال إلى ساحة أخرى يستطيع النبي فيها إقامة الحكومة التي تضمن تطبيق النظام الاسلامي في الحياة وتحقيق أهدافه الكبرى ونشره في كافة البلاد وابلاغه إلى جميع العباد.

سر أختيار المدينة:

كانت المدينة مهيأة جغرافياً واجتماعياً واقتصادياً لتكون قاعدة صلبة للاسلام:

١ ـ فمن الناحية الجغرافية تبعد المدينة عن مكة أكثر من أربعمئة كيلو متراً، مما يجعلها بمأمن من هجمات قريش المفاجئة والمباغتة من جهة، ومن جهة أخرى هي قريبة من طريق تجارة مكة ـ الشام بحيث تمكّن النبي ﷺ من فرض سيطرته وممارسة نوع من الضغط السياسي والاقتصادي وحتى العسكري على قريش في الوقت المناسب.

٢ ـ ومن الناحية الاجتماعية، فإن طول النزاع القبلي بين سكانها من الأوس والخزرج واليهود جعلها منطقة مفككة اجتماعياً، فكما أنها لا تستطيع أن تتماسك أمام قوة الاسلام، فإنها كانت تتطلع الى رجل تلتف حوله لينزع عنها الى الأبد هذه العصبيات المستعصية.

٣ ـ ومن الناحية الاقتصادية تعتبر المدينة غنية بإمكانياتها الزراعية بما يمكنها من المقاومة والاحتفاظ بنوع من الحياة في حال تعرضت لضغوط اقتصادية من قبل المشركين وغيرهم.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الشخصي / ٢

نموذج النظافة وأناقة المظهر:

كان رسول الله ﷺ شديد الاهتمام بالطهارة والنظافة، فلم يكن بماثله أحد في نظافة جسمه وملابسه وطيب رائحته.

* فقد كان يغتسل في أغلب الأيام معتبراً ذلك جزءاً من العبادات، وكان يداوم على الوضوء ليبقى على طهارة، حتى ورد عن بعض أصحابه: ما رأيت أوضأ من رسول الله ﷺ.

وكان يغسل شعر رأسه الذي كان يصل إلى شحمة أذنه بماء السدر، ويمشطه، ويدهنه بزيت البنفسج، ويعطر جسده وملابسه بالمسك، وكان يعرف في الليلة الظلماء قبل أن يرى بالطيب، فيقال: هذا النبي ﷺ.

وعن الامام الباقر عليه السلام: "**كان ﷺ لا يمر في طريق فيمر فيه أحد بعد يومين أو ثلاثة إلا عرف أنه قد مرَّ فيه لطيب عرفه**".

وعن الصادق عليه السلام: "**كان رسول الله ينفق على الطيب أكثر مما ينفق على الطعام**".

وكان لا يعرض عليه طيب إلا تطيب به، وقد ورد عن أنس بن مالك: صحبت رسول الله ﷺ عشر سنين وشممت العطر كله، فلم أشم نكهة أطيب من نكهة رسول الله ﷺ.

وكان ﷺ ينظف أسنانه بالمسواك عدة مرات في اليوم ولا سيما ليلاً قبل النوم وعند الاستيقاظ منه.

* كان يغسل يديه وفمه قبل تناول الطعام وبعده، متجنباً أكل الخضروات الكريهة الرائحة.

وكان شديد العناية بمظهره وهندامه، فقد روي أنه كان يتجمل لأصحابه فضلاً عن تجمله لأهله.

* وكان يوصي أصحابه وأتباعه ان يلتزموا نظافة أبدانهم وملابسهم وأن يعتنوا بمظهرهم الخارجي.

فعن الامام الباقر عليه السلام: احتبس الوحي على النبي ﷺ فقيل: احتبس عنك الوحي يا رسول الله؟ فقال ﷺ: "**وكيف لا يحتبس عني الوحي وأنتم لا تقلمون أظفاركم ولا تنقون روائحكم**".

وذات يوم رأته احدى زوجاته وهو ينظر في ركوة فيها ماء في حجرتها، ويسوي فيها جمته إذ لم يكن لديه مرآة ينظر فيها، وهو خارج إلى أصحابه، فقالت: بأبي وأمي، تتمرأ في الرَّكوة وتسوي جمتك وأنت النبي وخير خلقه؟!

فقال ﷺ: "إن الله يحب من عبده اذا خرج إلى إخوانه أن يتهيأ لهم ويتجمل".

٩

بناء الدولة ـ المجتمع السياسي الاسلامي

باشر النبي ﷺ فور وصوله الى المدينة المنورة بأعمال تأسيسية ترتبط ببناء المجتمع السياسي الاسلامي، وبمستقبل الدعوة الاسلامية، وأبرزها:

أولاً ـ بناء المسجد: وكان يعمل فيه بيده الشريفة الى جانب المسلمين حتى أتموا بناءه.

والمسجد هو أول مركز عنى النبي بإنشائه، وقد كان مركزاً للعبادة، والتعليم، والحكم، والادارة، وبقي كذلك زمناً طويلاً بعد وفاة النبي ﷺ، فلم يكن لحكومة النبي مقر خاص، وكان المقر العام الوحيد في الدولة هو المسجد، ولا تذكر المصادر أن النبيﷺ مارس مهمات حكومية وإدارية ـ في حال كونه في المدينة ـ في مكان آخر غير المسجد.

وأول مسجد بني في الاسلام هو مسجد قباء في قرية قباء القريبة من المدينة، حيث كانت محطة النبي الأخيرة في رحلة الهجرة قبل دخوله الى المدينة وهو المسجد الذي أشار إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿**لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُتَّطَهِّرِينَ**﴾[1].

إن اهتمام الاسلام بالمسجد وإعطاءه هذه الأولوية الى درجة أن يكون أول عمل يقوم به النبي ﷺ في قباء ثم في المدينة المنورة، يدل على أن الاسلام يريد منا أن نتعامل مع

(١) الأنفال ـ ٦٢.

المسجد كمركز روحي وثقافي وجهادي، كما تعامل معه رسول الله، وانه ينبغي أن يبقى محلاً للعبادة والتربية والتعليم، ومكاناً للتعارف والتآلف والوحدة بين المسلمين، ومركزاً يتخرج منه المجاهدون في سبيل الله.

ثانياً. المؤاخاة: «في سبيل ترجمة الرؤية النظرية في الاسلام الى واقع معاش، وفي سبيل التمهيد لولادة الأمة الجديدة بتركيب مجتمعي ذي صيغة منظورة ذات ملامح، وفي سبيل توكيد وحدة المسلمين والتغلب على التناقضات الداخلية القائمة بين الأوس والخزرج، والتناقضات المتوقعة بين المهاجرين والانصار، وفي سبيل تحطيم الاعتبار الطبقي القبلي، والاقتصادي، وعلاج مشكلة التفاوت في المستوى المعيشي، والتعبير العملي عن مبدأ المواساة والمساواة الاسلامي، الى جانب تعميق العلاقة الايمانية بين المسلمين: أقدم النبي ﷺ على أول خطوة تنظيمية للمجتمع الجديد هي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

فقد دعا رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين والأنصار بعد خمسة أو ثمانية أشهر من وصوله الى المدينة وقال لهم: تآخوا في الله أخوين أخوين، فتآخى هو ﷺ مع علي بن أبي طالب حيث أخذ بيده وقال: هذا أخي، وآخى بين المسلمين وكان يؤاخي بين كل ونظيره.

وهذه هي المؤاخاة الثانية، وكانت المؤاخاة الأولى في مكة بين أصحابه من قريش ومواليهم (العبيد المعتقين) فآخى بين عمه حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب وبلال مولى رسول الله ﷺ، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وقد آخى بينهم على الحق والمواساة».

وكان الهدف الذي توخاه الإسلام من هذه الأخوة هو أن يتحول المسلمون الأولون من مجتمع مفكك يعيش أبناؤه الأحقاد والبغضاء والعداوة الى مجتمع متماسك متآلف يعيش المحبة والمودة.

وكانت لهذه الخطوة ـ المؤاخاة ـ نتائج هامة على المستوى الجهادي في تاريخ المواجهة مع أعداء الاسلام، فقد استطاع المسلمون المتآخون تحقيق انتصارات كبرى في بدر والخندق وغيرها برغم قلة العدد وبساطة العتاد، وقد امتن الله على نبيه ﷺ في بدر بقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ**

وبالمؤمنين، وألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بينَ قُلُوبِهِم ولَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

ثالثاً. الصحيفة: مع بداية الهجرة كان ثمة خمس طوائف من السكان في المدينة هم:

١ ـ المهاجرون: الذين ضحوا بوطنهم وأموالهم وعلاقاتهم طلباً للحرية وحرصاً على دينهم، فهاجروا من مكة الى المدينة.

٢ ـ الأنصار: وهم سكان المدينة الأصليون من قبيلتي الأوس والخزرج، الذين أحبوا رسول الله ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه.

٣ ـ المشركون: من قبيلتي الأوس والخزرج ومن قبائل عربية أخرى ذكر منهم عشائر: خطمة بنو واقف، بنو سليم... وهؤلاء كانوا على الكفر أول الهجرة، وتأخر إسلام كثير منهم الى السنة الرابعة للهجرة.

٤ ـ المتهودون: وهم جماعة من الأوس والخزرج وغيرها كانوا قد تهوّدوا، لمجاورتهم خيبر وقريظة والنضير[2].

٥ ـ اليهود الأصليون: (من أصل اسرائيلي) الذين أتوا من فلسطين وسكنوا المدينة وضواحيها، وهم قينقاع، وقريظة، والنضير، ويهود خيبر.

هذه الطوائف الخمس كانت تعيش في المدينة ومحيطها في بداية الهجرة، وكانت العلاقات فيما بينها ـ على العموم ـ متوترة وغير مستقرة، كما كان الوضع قلقاً ومشكوكاً فيه.

وكان لا بد للنبي ﷺ الذي يسعى لتنظيم المجتمع الاسلامي في إطار دولة يحكمها القانون الإلهي من أن يقوم بجملة من التدابير التنظيمية التي تجعل علاقات هذه الطوائف فيما بينها منضبطة في إطار القانون الجديد وتقوم على أسس ومفاهيم وقواعد جديدة، من أجل أن يكسب النبي ﷺ من خلال ذلك السلم بينه وبين الأطراف الأخرى، ويمنع أية علاقة مع قريش يمكن أن تضربه في يوم من الأيام فكانت وثيقة الصحيفة، التي وضعها النبي ﷺ بعد المؤاخاة في السنة الأولى للهجرة والتي عبّر فيها

---

(١) التوبة ـ ٤٠.

(٢) راجع: تاريخ اليعقوبي: ج١، ص٢٥٧.

عن الوضع الحقوقي، والعلاقات التنظيمية الادارية والسياسية للمسلمين مع بعضهم بعضاً، ومع المتهودين من الأوس والخزرج.

فهذه الوثيقة بمثابة دستور عمل لتنظيم علاقات المسلمين فيما بينهم، وعلاقاتهم مع المتهودين، في ظل الدولة الاسلامية الناشئة.

وقد تضمنت قواعد كلية وأسساً عملية في الحقوق والعلاقات أهمها:

١ ـ أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس رغم اختلاف قبائلهم وانتماءاتهم.

٢ ـ أن رسول الله ﷺ هو قائد الأمة، وهو المرجع في حل المشكلات التي قد تحدث بين المسلمين وبين غيرهم.

٣ ـ قررت الوثيقة أن مركز السلطة في المدينة هو النبي ﷺ فهو صاحب القرار في السماح أو المنع من تنقل الأشخاص الى خارج المدينة فلا يسمح لأحد من اليهود ـ أي المتهودين ـ بالخروج الاّ بإذن رسول الله ﷺ.

٤ ـ إن مسؤولية دفع الظلم تقع على عاتق الجميع، ولا تختص على من وقع عليه الظلم.

٥ ـ منحت الوثيقة المتهودين من الانصار حقوقهم العامة كحق الأمن والحرية والمواطنة بشرط أن يلتزموا بقوانين الدولة وأن لا يفسدوا ولا يتآمروا على الاسلام والمسلمين.

رابعاً. موادعة اليهود: اليهود المقصودون في وثيقة الصحيفة الآنفة الذكر: هم المتهودون من قبائل الانصار وليس اليهود الذين هم من أصل اسرائيلي.

أما اليهود الأصليون وهم: قينقاع، والنضير، وقريظة، فقد شعروا بأنهم قد عزلوا عن أنصارهم من المتهودين بعد توقيع الصحيفة، فجاءوا الى رسول الله ﷺ وطلبوا الهدنة، فكتب لهم النبي ﷺ بذلك على أن لا يعينوا عليه أحداً، ولا يتعرضوا لأحد من أصحابه بلسان ولا يد، ولا بسلاح، لا في السر ولا في العلانية، فإن فعلوا فرسول الله ﷺ في حل من سفك دمائهم، وسبي ذراريهم ونسائهم وأخذ أموالهم، وكتب لكل قبيلة كتاباً على حدة[1].

(١) أنظر أعلام الورى: ص٦٩. والبحار: ج١٩، ص١١٠. والسيرة النبوية لدحلان: ج١، ص١٧٥.

خامساً . اعداد القوة العسكرية: فقد أقدم النبي ﷺ على خطوةٍ أخرى على طريق بناء الدولة، وهي خطوة الأعداد العسكري وإعداد القوة البشرية المدربة، وإعداد السلاح والخيل وغير ذلك مما تحتاجه القوة المسلحة، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم**﴾[1].

وقد نظم النبي ﷺ المدينة على أساسَ عسكري، وكوَّن من شعبها مجتمع حربٍ، فقسم المسلمين في المدينة إلى عرافات، وجعل على كل عشرة عريفاً، وجعل من جميع الذكور البالغين جنوداً، وكون منهم الجيوش، والسرايا العسكرية.

وما يمكن استفادته من الروايات المتفرقة فيما يتعلق بتنظيم القوة العسكرية وإدارة المعارك الدفاعية في عهد النبي ﷺ هو الملامح التالية:

أولاً . القرار العسكري: إن القرار العسكري الإستراتيجي والتكتيكي كان بيد النبي ﷺ وحده، ولم يكن لأحدٍ من المسلمين سلطة اتخاذ قرارٍ عسكري بشكل منفرد بعيداً عن النبي ﷺ. نعم من الثابت أن النبي ﷺ كان يستشير أصحابه، وكان يستمع بعناية لآرائهم واعتراضات بعضهم في الشؤون العسكرية ولكن القرار الجهادي والعسكري النهائي كان له وحده.

ثانياً . تشكيل الجيش: كان النبي يشكل الجيش والوحدات العسكرية من الذكور البالغين. وكان يختار للجندية الذين بلغوا خمس عشرة سنة من العمر ولم يكن يقبل في عداد الجيش من لم يبلغ هذه السن.

فقد روي عن عبد الله بن عمر أنه قال: عرضت على رسول الله ﷺ في جيش وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يقبلني. ثم عرضت عليه في العام التالي وأنا ابن خمسة عشرة فقبلني.

ورُوي مثل ذلك عن رافع بن خديج الذي استصغره النبي ﷺ يوم بدر ولكنه سمح له بالمشاركة في أُحد بعدما كان قد بلغ الخامسة عشرة من عمره.

وورد في بعض الروايات أن النبي ﷺ كان يستعرض شبان الانصار في كل عام، وكان

---

(١) الأنفال . ٦٠.

يسمح لمن تثبت لياقته البدنية بالانخراط في الجيش والمشاركة في الجهاد.

ثالثاً. التدريب: فقد كان شبان المدينة المنورة يتدربون على استعمال السلاح، وفنون القتال، وكان في المدينة مكان مخصص للتدريب.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه أمر بالتدرب على الفروسية والرمي، وقال فيما روي عنه: علموا أولادكم السباحة والرمي وركوب الخيل.

وكان علي عليه السلام يعلم الناس الرمي في المدينة على عهد رسول الله ﷺ.

وعلى أي حالٍ فقد كان التدرب على السلاح وفنون القتال، من مقومات الثقافة العامة للمجتمع الإسلامي آنذاك، بحيث كان يعتبر غير الخبير بفنون القتال شاذاً عن النمط العام.

رابعاً: لم يظهر من نصوص السيرة النبوية أن النبي أسس جيشاً متفرغاً على غرار ما يسمى الآن الجيش المحترف وهو: تفرغ عددٍ من المقاتلين لحياة الجندية مدةً من الزمان في حال السلم، فلم يُؤسس في حياة النبي ﷺ جيش من هذا النوع، وإنما كان الانخراط الفعلي في العمل العسكري يتم حين تدعو الحاجة أي حين يقرر النبي القيام بحملة عسكرية، وحين يتهدد المدينة خطر الغزو.

وعلى أي حالٍ فإن هناك الكثير من النظم العسكرية في سيرة النبي غير ما ذكرنا، من قبيل إحصاء عدد المسلمين لأغراض عسكرية، ومن قبيل التسليح العسكري والصناعات العسكرية، والتجسس العسكري وغير ذلك من الملامح التي تكشف عن دقة التنظيم العسكري، الذي كان له دور كبير في تحقيق إنجازات عسكرية كبرى في عهد النبي ﷺ في فترة زمنية قصيرة نسبياً.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الشخصي / ٣

زهده ﷺ:

إذا أردنا أن نكوِّن فكرة واضحة عن زهد رسول الله ﷺ علينا أن نعرف طعامه، ولباسه ومسكنه ومدخراته.

* **أما طعامه:** فقد كان خبز رسول الله ﷺ خبز الشعير في أكثر أحيانه، وما أكل خبز طحين منخول حتى قبض بل ما شبع من خبز الشعير قط.

فعن العيص بن قاسم قال: قلت للصادق جعفر بن محمد عليه السلام: حديث يروى عن أبيك عليه السلام أنه قال: "**ما شبع رسول الله ﷺ من خبز بر قط**"، أهو صحيح؟ فقال: لا، ما أكل رسول الله ﷺ من خبز بر قط، ولا شبع من خبز شعير قط.

وعنه عليه السلام، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: "**دخلت السوق فابتعت لحماً بدرهم وذرة بدرهم وأتيت فاطمة عليها السلام حتى إذا فرغت من الخبز والطبخ قالت: لو دعوت أبي! فأتيته وهو مضطجع وهو يقول: أعوذ بالله من الجوع ضجيعاً، ثم جاء معه وتغدى عنده**".

وعن الامام الصادق عليه السلام قال: "**ذُكر اللحم عند رسول الله ﷺ فقال: ما ذقته منذ كذا**".

ولشدة زهد النبي ﷺ بالدنيا تروي عائشة فتقول: "**ما زالت الدنيا علينا عسرة كدرة حتى قُبض رسول الله ﷺ فلما قُبض صبت الدنيا علينا صباً**".

وقالت: "**والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما كان لنا منخل ولا أكل النبي ﷺ خبزاً منخولاً منذ بعثه الله إلى أن قُبض**".

* **وأما لباسه:** فيكفينا أن نعلم أنه ﷺ ـ كما تقول عائشة ـ "ما اتخذ من شيء زوجين، لا قميصين ولا رداءين ولا ازارين، ولا من النعال، وكثيراً ما كان يلبس المرقّع من الثياب".

يقول أبو بردة: "دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن وكساءً من هذه الملبدة، فأقسمت أن رسول الله ﷺ قبض فيها".

* **وأما مسكنه:** فقد كان غرفة واحدة لكل زوجة من زوجاته، فيها ينام وفيها يجلس وفيها يأكل، وكان أثاثها بسيطاً زهيد الثمن، وكان فراش رسول الله ﷺ ومخدته من جلد محشو بالليف.

يروي أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: **"كان فراش رسول الله ﷺ عباءة وكانت مرفقته أدم حشوها ليف.. وكان كثيراً ما يتوسد وسادة له من أدم حشوها ليف. ويجلس عليها. وكانت له قطيفة فدكية يلبسها يتخشع بها. وكانت له قطيفة مصرية قصيرة الخمل. وكان له بساط من شعر يجلس عليه"**.

وروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: **"إن رجلاً من الأنصار أهدى الى رسول الله ﷺ صاعاً من رطب. فقال رسول الله ﷺ للخادمة التي جاءت به: أدخلي فانظري هل تجدين في البيت قصعة أو طبقاً فتأتيني به؟ فدخلت ثم خرجت إليه فقالت: ما أصبت قصعة ولا طبقاً. فكنس رسول الله ﷺ بثوبه مكاناً من الأرض ثم قال لها: ضعيه ها هنا على الحضيض! ثم قال: والذي نفسي بيده لو كانت الدنيا تعدل عند الله مثقال جناح بعوضة ما أعطى كافراً ولا منافقاً منها شيئاً"**.

* **وأما مدخراته:** فإن رسول الله ﷺ لم يكن يدخر شيئاً من المال ولا من الأشياء.

قال أنس بن مالك: كان رسول الله لا يدخر شيئاً لغد.

ويكفي أن نعلم إنه ﷺ لما توفي ما ترك إلاّ سلاحه وبغلته ودرعاً مرهونة.

فعن ابن عباس قال: **"إن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند رجل من اليهود على ثلاثين صاعاً من شعير أخذها رزقاً لعياله"**.

وعن الامام علي عليه السلام: **"نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ فقال: إن الله جل جلاله يقرؤك السلام ويقول لك هذه بطحاء مكة إن شئت أن تكون لك ذهباً. فنظر النبي ﷺ إلى السماء ثلاثاً ثم قال: لا يا رب ولكن أشبع يوماً فأحمدك وأجوع يوماً فأسألك"**.

١٠

الصراع المسلح مع قريش ـ ١

تقديم:

بعد أن استقر النبي ﷺ في المدينة ورتّب أوضاعها الداخلية وتجذّر الوجود الاسلامي فيها، بدأت مرحلة الدفاع عن الاسلام والجهاد ضد القوى الجاهلية وفي مقدمها قريش واليهود، بعد أن أذن الله له بالقتال في قوله تعالى: ﴿**أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾[1].

وقد واجه النبي ﷺ عسكرياً ثلاث فئات من الاعداء هم:

١ ـ المشركون (من قريش وغيرها من القبائل الأخرى).

٢ ـ اليهود.

٣ ـ النصارى (في حرب مؤتة وتبوك).

وللمؤرخين اصطلاحان في المعارك التي خاضها المسلمون في حياة النبي ﷺ هما:

الغزوة، ويقصدون بها: المعركة التي يحضرها النبي ﷺ نفسه ويتولى هو قيادتها.

السرية وهي: المجموعة الجهادية التي لا يكون فيها النبي ﷺ ويتولى أحد أصحابه قيادتها.

---

(١) الحج. ٣٩. ٤٠.

وقد أحصى المؤرخون عدد الغزوات والسرايا في حياة النبي ﷺ فبلغت أكثر من ثمانين بين غزوة وسرية. وكلها كانت في فترة ما بعد الهجرة.

أ ـ السرايا الأولى:

بسبب اعتداءات قريش المتكررة على المسلمين، بدأ الرسول ﷺ فور تثبيت أسس الدولة الإسلامية الجديدة في المدينة صراعاً مسلحاً ضد الوثنية وزعيمتها قريش تمثل بشن حروب متقطعة ضد القوافل والمواقع الوثنية، اطلق عليها المؤرخون اسم (السرايا الأولى).

وكانت أول سرية بعث بها رسول الله ﷺ ـ بعد سبعة أشهر من الهجرة ـ هي سرية حمزة بن عبد المطلب ومعه ثلاثون من المهاجرين لملاقات بعض المشركين من قريش، لكن مجدي بن عمرو الجهني الذي كان موادعاً للطرفين، حال بينهما، فانصرفا من غير قتال.

وفي الشهر الثامن من الهجرة فصاعداً تتالت السرايا في مهمات عسكرية واستطلاعية فكانت سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسرية سعد بن أبي وقاص، وسرية عبد الله بن جحش وغيرها، وقد تشكّلت هذه السرايا من المهاجرين دون الأنصار، وكان الهدف منها: إرباك قريش وحلفائها وأضعافهم وتحطيم معنوياتهم، وضرب نشاطهم التجاري الذي يمثل عصب حياتهم وشريان وجودهم، وانذار اعداء الدولة الناشئة من غير قريش وحلفائها كاليهود في الداخل وجماعات البدو في الخارج بأن المسلمين قادرون على الرد ومستعدون للتصدي لأي عدوان يستهدف الإسلام وكيانه السياسي.

وكان النبي ﷺ إذا بعث سرية أوصاهم بقوله ﷺ: «**سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً، ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلاّ أن تضطروا إليها، وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى رجل من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله، فإن تبعكم فأخوكم في الدين، وإن أبى فأبلغوه مأمنه، واستعينوا بالله عليه**».

وقاد حققت هذه السرايا المنجزات التالية:

١ ـ عقد تحالفات بين المسلمين وبين بعض القبائل المتواجدة في المنطقة، بعد ما شعرت تلك القبائل بقوة المسلمين وقدرتهم على التحرك، وبتصميمهم على مواجهة حتى قريش بالحرب.

٢ ـ التدريب على القتال في ظروف جديدة تختلف عن ظروف معارك الجاهلية، وفي اطار موازين قوى مادية ومعنوية مختلفة.

٣ ـ استطلاع المناطق المحيطة بالمدينة وما فيها من مسالك وطرق مواصلات ومصادر مياه.

٤ ـ تهديد قريش بالحصار الاقتصادي عن طريق جعل ممرات تجارة قريش مع بلاد الشام مهددة وغير آمنة.

٥ ـ تثبيت هيبة الإسلام والمسلمين بين القبائل المجاورة للمدينة.

ب ـ معركة بدر:

كانت معركة بدر أول معركة مسلحة كبرى خاضها النبي ﷺ والمسلمون في مواجهة المشركين من قريش، وذلك يوم الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان المبارك في السنة الثانية من الهجرة، قرب بدر على بعد حوالي مائة وستين كيلو متراً من المدينة فيما بينها وبين مكة المكرمة.

خرج رسول الله ﷺ ومعه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه مستهدفين السيطرة على القافلة التجارية التي كان يقودها أبو سفيان، المتوجهة من الشام الى مكة، لا طمعاً في المال والغنيمة وإنما بغية التعويض على المسلمين مما أخذه منهم المشركون، وفرض حصار اقتصادي على قريش، علَّ ذلك يدفعها الى الامتناع عن محاربة الدعوة، والتآمر على الاسلام والمسلمين.

لقد كان قرار التصدي للقافلة ينطوي على احتمال تطور الموقف، وحصول مواجهة عسكرية، ونشوب معركة حاسمة ومصيرية، وهو ما حصل فعلاً.

فقد علم أبو سفيان بتحرك النبي ﷺ فغيّر طريقه، وأرسل الى مكة يطلب النجدة من قريش، فأقبلت قريش بأحقادها وكبريائها بألف مقاتل لحماية القافلة، وحين علمت قريش بنجاة القافلة حاول بعض قادتها أن يكتفي بذلك ويدعو الى الانسحاب والعودة الى مكة، إلاّ أن أبا جهل وغيره أصرَّ على العدوان، فقرروا الهجوم على المسلمين والتقى الجمعان في بدر، وبدأت المعركة بالمبارزة ثم التحم الجيشان وهما غير متكافئين لا من حيث العدد ولا من حيث العتاد، ولكن الله أنزل الكثير من ألطافه ورحمته، فتدخلت يد

الغيب، وجاء الامداد الملائكي للنبي ﷺ، فحقق الله سبحانه النصر للاسلام والمسلمين، واندحرت قوة قريش، وتشتت جيشها بين قتيل وجريح وأسير حيث أسفرت المعركة عن قتل سبعين من المشركين وأسر سبعين، ولم يسقط من المسلمين سوى تسعة شهداء وقيل: أحد عشر، وقيل: أربعة عشر شهيداً، ولم يُؤسر منهم أحد.

وقد برز لعلي بن أبي طالب عليه السلام في هذه المعركة دور كبير، وظهرت شجاعته المتميزة بين صفوف المسلمين، حيث رُوي أنه قتل بيده ثلث قتلى المشركين، وقيل: قتل نصفهم بيده وشارك الآخرين في قتل النصف الآخر.

لقد حقق المسلمون في بدر مكاسب مادية وأمنية وعقيدية واعلامية ساهمت في خدمة الدعوة وتثبيت أركانها، وتحقيق نقلة نوعية في مجمل الأحداث في الجزيرة العربية.

ولعل أبرز نتائج هذه المعركة أنها:

أولاً: عززت ثقة المسلمين بأنفسهم، وثبّتت إيمان بعض المترددين في اسلامهم.

ثانياً: جعلت من المسلمين قوة مرهوبة الجانب عند القبائل المشركة واليهود في المنطقة.

ثالثاً: شجعت الكثيرين على الدخول في الاسلام بعد أن كانت قريش تشكّل الحاجز النفسي والمادي لهم.

رابعاً: اضعفت هيبة قريش ونفوذها ومكانتها بين العرب.

خامساً: فتحت الأبواب أمام رسول الله ﷺ في الانطلاق بحرية أكبر في نشر الدعوة.

سادساً: زادت من قوة التضامن والتماسك بين المهاجرين والانصار وعززت وحدتهما في مواجهة التحدي.

وأثبتت تجربة بدر:

أولاً: أن القلة المؤمنة المجاهدة الصابرة التي تملك إرادة قوية وعزيمة راسخة، وإخلاصاً، ووعياً، وتخطيطاً، تستطيع أن تحقق الانتصارات والانجازات الكبرى بإذن الله حتى ولو كان العدو يملك الكثرة والقوة المادية الكبيرة.

يقول الله تعالى: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة**﴾[1].

---

(١) آل عمران ـ ١٢٣.

ويقول سبحانه: ﴿**يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين**﴾[1].

وثانياً: إن النصر بحاجة الى عنصر روحي معنوي: هو الايمان بالله، والاخلاص له، والاعتماد عليه، والثقة به وغير ذلك مما يوفر للانسان قوة روحية ومعنوية تبعده عن الشعور بالقلق والخوف والضياع أمام مواقف التحدي.

وقد كان هذا العنصر حاضراً بقوة في بدر ومجاهديها، وقد ساهم بصورة أساسية في تحقيق الانتصار في هذه المعركة وفي كل المعارك التي خاضها المسلمون في مواجهة أعدائهم.

أسباب الانتصار:

ثمة أسباب عديدة تمخض عنها انتصار القلة على الكثرة في معركة بدر نعرض هنا لأهمها لأنها يمكن ان تعد الأسباب النموذجية التي تفسر لنا الكثير من الانتصارات التي حققها المسلمون ضد أعدائهم الذين يفوقونهم عدداً وعتاداً، ليس في عصر النبيﷺ فقط بل فيما تلاه من عصور وحتى عصرنا وهذه الأسباب هي:

أولاً. وحدة القيادة: فقد كان الرسول الأعظم ﷺ هو القائد العام للمسلمين في معركة بدر، وكان المسلمون يعملون كيد واحدة تحت قيادته، يوجههم ويحدد لهم التكاليف للقيام بعمل حاسم، وكان انضباط المسلمين في تنفيذ أوامر قائدهم نموذجاً رائعاً للانظباط الحقيقي، ومعنى الانضباط هو اطاعة الأوامر وتنفيذها والقيام بالتكاليف المحددة بحرص وامانة وعن طيبة خاطر.

ثانياً. العقيدة الراسخة والمعنويات العالية: فقد تمتع المسلمون في بدر بروح معنوية عالية نابعة من عقيدة راسخة وارادة قوية واخلاص وتفان في سبيل الله قل نظيره، ولم تكن معنويات الذين خبروا الحرب ومارسوها طويلاً عالية فحسب، وانما كانت معنويات الاحداث الصغار الذين لم يمارسوا حرباً ولا قتالاً عالية أيضاً..

(١) الأنفال، ٦٥، ٦٦.

لقد أثبتت بدر وكافة الحروب التي خاضها النبي ﷺ والمسلمون أن التسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية لنيل النصر ما لم يتحلَّ المقاتلون بالايمان والتوكل والصبر والشجاعة والثبات والاخلاص والطاعة والوعي والتضحية والتعاون والايثار والروحية العالية.

ثالثاً. وضوح الهدف وسمو الغاية: فقد كان المسلمون في بدر يقاتلون في سبيل رضوان الله، وطلباً للآخرة، وكانت لديهم أهداف واضحة يعرفونها ويؤمنون بها وهي ازالة كل الحواجز المادية من امام الدين الجديد وترك الحرية الكاملة لهم لنشر الاسلام الذي يحرر الانسان من العبودية للطاغوت لتكون كلمة الله هي العليا.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الشخصي ـ ٤

شجاعته وثباته:

إذا أردنا أن نكوّن فكرة واضحة عن مدى شجاعة رسول الله ﷺ فلنستمع إلى شهادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يصف شجاعة رسول الله ﷺ حيث يقول: **"لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً"**.

وقال عليه السلام أيضاً: **"كنا إذا احمرّ البأس ولقي القوم القوم، إتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه"**.

وروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: **"أغار المشركون على سرح المدينة فنادى فيها مناد: يا سوء صاحباه! فسمعها رسول الله ﷺ في الجبل فركب في طلب العدو وكان أول أصحابه لحقه أبو قتادة على فرس له وكان تحت رسول الله ﷺ سرج دفّتاه ليف ليس فيه أشر ولا بطر، فطلب العدو فلم يلقوا أحداً، وتتابعت الخيل فقال أبو قتادة: يا رسول الله ان العدو قد انصرف فإن رأيت أن نستبق، فقال: نعم، فاستبقوا فخرج رسول الله ﷺ سابقاً عليهم، ثم أقبل عليهم فقال: أنا ابن العواتك من قريش إنه لهو الجواد البحر، يعني فرسه"**[1].

ولما انصرف رسول الله ﷺ يوم أُحُد، أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول: لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله ألا يعطف عليه رجل منا؟ فقال: دعوه، حتى إذا دنا منه، وكان أبيّ قبل ذلك يلقى رسول الله ﷺ فيقول: عندي رمكة أعلفها كل يوم فرق ذرة اقتلك عليها.

فقال رسول الله ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله، فلما كان يوم أُحُد ودنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمّه ثم استقبله فطعنه في عنقه فخدش خدشة، فندهده عن فرسه وهو يخور خوار الثور وهو يقول: قتلني محمد، فاحتمله أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس، فقال: بلى، لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر لقتلهم، ألبس قال لي: اقتلك؟ لو بزق عليّ بعد تلك المقالة لقتلني، فلم يلبث يوماً حتى مات[2].

---

(١) بحار الأنوار ١٩ ص١٧١.

(٢) بحار الأنوار ٢٠ ص٢٦.

وعن انس بن مالك قال: كان في المدينة فزع فركب النبي ﷺ فرساً لأبي طلحة فقال: ما رأينا من شيء وإن وجدناه لبحراً.

وبرواية أخرى عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس. قال: لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت. فتلقاهم رسول الله ﷺ وقد سبقهم، وهو يقول: لم تراعوا. وهو على فرس لأبي طلحة وفي عنقه السيف. فجعل يقول للناس: لم تراعوا. وجدناه بحراً أو أنه لبحر[1].

(٣) مكارم الأخلاق ص١٩.

١١

الصراع المسلح مع قريش ـ ٢

ج ـ معركة أحد:

استمرت أحداث بدر ومعركتها التاريخية تتفاعل حقداً وكيداً في نفوس المشركين في مكة. ولم يكن لدى أبي سفيان، قائد الشرك والعدوان آنذاك، غير التفكير بالحرب ومعاودة الهجوم على المسلمين بدافع الثأر، وتحقيق نصر عسكري يغيِّر الآثار النفسية والاعلامية التي انتجتها معركة بدر.

فدق المشركون طبول الحرب، وخططوا للعدوان والهجوم على المدينة، واتفقوا على أن ترصد أرباح القافلة التجارية التي أفلتت من قبضة المسلمين وقادت الى معركة بدر، لإسناد هذه الحملة العسكرية الآثمة.

زحف المشركون باتجاه المدينة وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل معهم العتاد والسلاح الكثير، وأخرجوا النساء معهم ليشجعن الجنود على القتال، فعرف النبي ﷺ بمسيرهم من خلال عيونه في مكة. ويقال: إن العباس بن عبد المطلب أرسل إليه من مكة بذلك، فأعلن النبي ﷺ التعبئة العامة في صفوف المسلمين استعداداً للدفاع، وبثّ العيون ورجال الاستطلاع في المنطقة لجمع المعلومات، وبعد أن استشار أصحابه في سبل التصدي، قرر مواجهة العدو خارج المدينة، فخرج ﷺ في حوالى ألف مقاتل، غير أن المنافقين بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول، انسحبوا قبل الوصول الى ساحة المعركة، وكانوا ثلاثمائة، بحجة أن النبي خالف رأيهم الداعي الى قتال المشركين من داخل المدينة،

فواصل رسول الله ﷺ مسيرة الجهاد بسبعمائة مقاتل، والتقى الفريقان عند جبل أُحد على بُعد بضعة كيلومترات من المدينة، في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة.

رسم رسول الله ﷺ خارطة المعركة، وحدد مواقع جيشه، فوضع الرماة عند فتحة في الجبل، وكان عددهم خمسين رجلاً، ليسدَّ بهم ثغرة يمكن للعدو أن يتسلل منها، وليوفر حماية خلفية للجيش الاسلامي، وأمرهم بعدم ترك مواقعهم مهما حدث، فقال لهم فيما يروى عنه ﷺ: «**إحموا ظهورنا فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا**».

وبدأت المعركة، وكان النصر حليف المسلمين في الجولة الأولى، فاستولت قواتهم على ساحة المعركة، وانهزم العدو، وبدأوا بجمع الغنائم، فاستهوت الغنائم نفوس بعض الرماة، فتركوا مواقعهم، واندفعوا نحو الغنائم، مخالفين بذلك أوامر قائدهم الذي رفض مع قلة منهم أن يترك موقعه إمتثالاً لتكليف رسول الله ﷺ، مما أحدث ثغرة في صفوف المجاهدين، فاستغلها خالد بن الوليد أحد قادة المشركين آنذاك، فهاجم المجاهدين من خلفهم، فتسبب هذا الهجوم ببعثرة الجيش الاسلامي وانهزامه أمام المشركين الذين استعادوا أنفاسهم بعدما تمكّن خالد بن الوليد من قتل القلة التي بقيت على الجبل والالتفاف على المسلمين المنشغلين بجمع الغنائم، وصرخ صارخ أن محمداً قد قتل فتشتت المسلمون تحت وقع المباغتة وتفرقوا عن رسول الله ﷺ ولم يثبت معه غير علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي راح يقاتل إلى جانب رسول الله ﷺ قتالاً شديداً ويصد كتائب المشركين ويفرقهم ويقتل فيهم، عندها نادى جبرائيل عليه السلام من السماء: «لاسيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي».

ولما رأى المسلمون الفارون صبر وثبات رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام وقوة جهادهما في سبيل الله وعرفوا ان النبي ﷺ لم يمت وهو يدعوهم إليه بدأوا يعودون تدريجياً إلى ميدان المعركة حتى اجتمعوا حوله ﷺ فطلب منهم ان يرجعوا إلى مراكزهم الأولى في القتال، تماماً كما هي الخطة الأولى، فقاتلوا من جديد قتالاً شديداً، وتمكنوا من صد هجمات المشركين المتواصلة، وادرك المشركون استحالة ابادة المسلمين وتفتيتهم وتحقيق انتصار عليهم، وكانوا قد أصابهم التعب والجراح، فآثروا الانسحاب عائدين إلى مكة دون تحقيق أهدافهم.

ومع ذلك فان ما أصاب المسلمين في هذه المعركة كان خسارة فادحة، فقد سقط فيها حوالى سبعين شهيداً وفي مقدمهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وعدد كبير من الجرحى حتى أن النبي ﷺ أصيب ببعض الجراح في وجهه، حسب رواية عن الامام الصادق عليه السلام وبلغت جراحات علي عليه السلام نيفاً وستين جراحة، وقيل أكثر من ذلك، بين طعنة، ورمية، وضربة أثناء دفاعه عن رسول الله ﷺ وصده كتائب الأعداء.

لقد أصيب المسلمون بفعل النكسة في أحد بصدمة عنيفة وحزن عميق، وشعروا بالضعف والاحباط حتى كاد اليأس يتسرب الى البعض والشك الى البعض الآخر.

وقد تعرّض القرآن الكريم لبعض هذه المواقف وغيرها على النحو التالي:

١ ـ استنكر القرآن حالات الوهن والحزن والاحباط التي أصابت المسلمين في أحد، وحاول أن يبعث الأمل في نفوسهم، ويجدد عزيمتهم وإرادتهم، ويعيد إليهم الثقة بأنفسهم، وذلك عن طريق التشجيع والمواساة، فقال تعالى: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾[1].

فليس هناك انتصار دائم ولا انكسار دائم، لأن الدنيا مداولة بين الحق والباطل، فقد ينتصر الحق في معركة، وقد ينتصر الباطل في معركة أخرى، وهذه هي سنة الله في الكون والحياة، فلا ينبغي للمؤمن أن ييأس أو يضعف أو يشعر بالحزن والاحباط واليأس عندما ينهزم في أي موقع من مواقع الصراع مع الباطل، وإنما عليه أن يأخذ العبرة من الأحداث، ويدرس أسباب الهزيمة، ويتفحص مواطن القوة والضعف، ليتعلم من أخطائه، وليتفادى عوامل الانكسار والهزيمة، وليحذر ويواجه أحداث المستقبل بالرصد والوعي والاتزان.

٢ ـ إن الفشل في بعض مواقع الصراع قد يكون اختباراً وابتلاءاً من أجل تمحيص الناس وتمييزهم، لأن جوهر شخصية الانسان يتضح عندما تخضع الشخصية للبلاء، وهذا الواقع أكّدته أحداث أُحد، فالهزيمة الطارئة زلزلت ضعاف النفوس وجعلتهم يعيشون حالات الشك والريب، بينما زادت هذه التجربة الصادقين إيماناً وصدقاً

(١) آل عمران. ١٣٩ ـ ١٤٠.

وإصراراً وثباتاً في مواجهة التحدي، وبذلك انكشف الايمان المزيف من الايمان الخالص، والايمان القوي الراسخ في العقول والنفوس من الايمان المتزلزل.

وكذلك فإن المسلمين في أُحد كانوا يتمنون الموت والشهادة في سبيل الله، ولكن حين خضع بعضهم للتجربة، وفُرضت عليهم المعركة، من جديد، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الشهادة، سقطوا في الاختبار، وحاولوا الفرار من ساحة الجهاد، ولم يثبت مع رسول الله ﷺ إلاّ القلة، برغم أنهم كانوا يرونه يتعرض لهجوم واسع من قبل المشركين حتى أصيب ببعض الجراحات، وقد صوّر القرآن الكريم هذا الواقع بقوله تعالى: **﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾**[1].

٣ ـ إن من أخطر المواقف التي واجهت المسلمين في أُحد هو موقف البعض الذي بدأ يفتش عمن يأخذ له الامان من العدو ليسلم بنفسه، أو بدأ يشكك بصدق رسول الله ﷺ ورسالته، وذلك بعدما انتشرت إشاعة مقتل النبي ﷺ وشعر المسلمون بالقلق والضياع.

فقد قال البعض: «ليتنا نجد من يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان».

وقال البعض: «لو كان محمد نبياً لم يُقتل، إلحقوا بدينكم الأول».

وقد تحدث القرآن عن ذلك بقوله تعالى: **﴿وما محمد إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**[2].

فالمزلزلون في ايمانهم، ينقلبون على أعقابهم، ويتراجعون عن دينهم وعن الحق بعد أن يسمعوا بمقتل الرسول ويشعروا بغياب القائد. ولكن في مقابل هؤلاء نجد من الرجال المؤمنين من يمثلون حقيقة الايمان والثبات على الحق حتى في حال غياب القائد أو موته.

فقد روي في أُحُد أن رجلاً من المهاجرين مرَّ برجل من الانصار يتشحط بدمه فقال له: أعلمت أن محمداً قد قتل؟! فأجابه الانصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلَّغ فقاتلوا عن دينكم.

---

(١) آل عمران. ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) آل عمران. ١٤٤.

وفي رواية أخرى: أن أنس بن النفر مرَّ برجال من المهاجرين والأنصار في معركة أُحُد وقد انكفؤا عن الجهاد فقال لهم: ما يجلسكم؟ فقالوا: قتل محمد!.

فقال: إن كان محمد قد قتل فإن ربَّ محمدٍ لم يُقتل وما تصنعون بالحياة بعده فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه.

فغياب القائد لا يوقف المسيرة ولا يلغي الرسالة والقضية، ولذلك فلا يجوز أن ينحرف المسلمون عن خط الرسالة أو يتخلوا عن قضيتهم ويتراجعوا اذا مات القائد أو أصيب، وإنما عليهم أن يجردوا أنفسهم لحمل مسؤولية الرسالة وإكمال المسيرة بعده بقوة وعزم وإرادة صلبة.

أسباب الهزيمة والدروس المستفادة:

إن الأسباب التي أدت إلى فشل المسلمين في أحد فصول معركة أُحد وما يمكن ان نستفيده من هذه التجربة كثيرة منها:

١ ـ أهمية الانضباط والتقيد بأوامر القائد وتوجيهاته مهما كانت الظروف، فان الانضباطية خصوصاً حين يكون القائد حكيماً هي أساس النجاح والانتصار، وربما تكون مخالفة أفراد معدودين، سبباً في دمار جيش بكامله، كما كان الحال في أحد، فإن من الواضح ان السبب الأول للهزيمة يعود إلى تهاون الرماة في تنفيذ الأوامر، واختلافهم، وعصيانهم لرسول الله ﷺ طمعاً في الدنيا وإيثاراً لها على الآخرة.

قال الله تعالى: **﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾**[1].

٢ ـ ان النصر لا يرتبط بكثرة العدد، ولذلك فلا ينبغي الاغترار بالكثرة بل يجب الاعتماد على النفس والتوكل على الله والطاعة للقيادة وتحمل المسؤولية والقيام بالتكاليف. فقد كان لاغترار المسلمين بأنفسهم وبكثرتهم أثر كبير في حلول الهزيمة

(١) آل عمران ـ ١٥٢.

بهم، فقد قالوا للنبي ﷺ: قد كنتَ في بدر في ثلاثمائة رجل؛ فأظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير، نتمنى هذا اليوم، وندعو الله له، وقد ساقه الله إلى ساحتنا هذه[1].

وواضح: ان الإغترار بالكثرة يفقد العناصر المشاركة الشعور بالاعتماد على النفس، ويجعلهم يعيشون روح التواكل، واللا مسؤولية.

٣ ـ ان سنن الحياة لا تتبدل، فالمسلمون عندما يأخذون بأسباب النصر ينتصرون وتشملهم عناية الله، وعندما يتهاونون فيها يصابون بالهزيمة، انها سنة الله في الحياة، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٤ ـ ان عناية الله بالمؤمنين وتسديده لهم لا يعني الغاء جميع الاسباب الطبيعية كليةً، كما لا يعني ان هذه العناية، وذلك الامداد مطلق غير مشروط، بل هو مشروط قطعاً بالسعي من قبلهم نحو الهدف الاسمى، والعطاء والبذل والتضحيات التي تؤهلهم لأن يكونوا موضعاً لعنايات الله وألطافه. يقول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾[2].

أو على الأقل لابد لاستمرار هذه العناية الإلهية بهم من حفظ الحد الادنى من الارتباط بالقيادة، وإطاعتها، وتنفيذ أوامرها.

٥ ـ الارتباط بالله سبحانه وابتغاء ما عنده والاعراض عن الدنيا ومتاعها، وعدم الطمع في مكاسبها وغنائمها، فان الله سبحانه مازال يؤيد المسلمين بنصره في أحد، حتى عصوا الرسول ﷺ طمعاً في الدنيا، وايثاراً لها على الآخرة، فكان لابد في هذه الحالة من إعادة التمحيص لهم، وابتلائهم، ليرجعوا إلى الله، وليميز الله المؤمن من المنافق؛ وليزداد الذين آمنوا إيماناً.

٦ ـ أهمية تطهير الصفوف من المنافقين وضعاف الايمان الذين يسقطون امام مغريات الدنيا، والاشاعات الكاذبة ويفتقدون الوعي والاخلاص، والصبر في مواقع التحدي.

---

(١) أنظر: الواقدي، المغازي: ج١، ص٢١١.

(١) محمد ـ ٧.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الشخصي / ٥

منطقه ﷺ

لقد اتفق جميع الذين وصفوا منطق رسول الله ﷺ على أنه ﷺ كان أحسن الناس منطقاً.

فقد سأل الامام الحسن عليه السلام هند بن أبي هالة التميمي ان يصف له منطق رسول الله ﷺ فقال: "**كان رسول الله متواصل الأحزان، دائم الفكرة ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه (الاشداق جوانب الفم أي لا يفتح فاه كله) ويتكلم جوامع الكلم فصلاً لا فضولاً ولا قصيراً فيه، دمثاً ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت ولا يذم منها شيئاً، ولا يذم ذواقاً ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا وما كان لها، إذا تعوطي الحق لم يعرف أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث أشار بها فضرب راحته اليمنى باطن ابهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض من طرفه، جل ضحكه التبسم ويفتر عن مثل حب الغمام**"[1].

وإذا أردنا أن نبحث عن مكونات حلاوة منطقه ﷺ وحسنه لحصلنا من ذلك على العناصر التالية:

* ترك الفاحش من القول: فلم يكن رسول الله ﷺ سباباً ولا فحاشاً، بل كان ابعد ما يكون عن الفحش والبذاءة في الكلام. فقد روي أنه قيل له: يا رسول الله أدع على المشركين! فقال ﷺ: إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة.

وعن أنس بن مالك قال: خدمت النبي تسع سنين فما قال لشيء أسأتَ، ولا بئس ما صنعْتَ، وكان إذا أنكر الشيء يقول: كذا قُضي[2].

* فصاحة لسانه: فقد كان رسول الله ﷺ فيصح اللسان إذا تكلم، تكلم بأناة وهدوء، (يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، ويتكلم جوامع الكلم فضلاً لا فضولاً ولا قصيراً فيه).

---

(١) مكارم الأخلاق ص ١٣.

(٢) اخلاق النبي للاصبهاني ٣٦.

⋆ تبسمه أثناء التكلم: قال أبو الدرداء: كان رسول الله ﷺ إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه[١].

⋆ تكليمه للناس على قدر عقولهم: فكانت أساليب عرضه للأفكار وإجاباته على الأسئلة تختلف في البعد والمستوى من شخص لآخر طبقاً للقابليات الذهنية التي يتمتع بها الأفراد، وإلى هذا أشار الرسول ﷺ بقول: **"إنَّا معاشر الأنبياء أُمِرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم"**.

(١) أخلاق النبي ٩٢.

١٢

الصراع المسلح مع قريش ـ ٣

د ـ معركة الخندق:

توالت غزوات الرسول ﷺ لبعض قبائل العرب واليهود بعد معركة بدر وأحد، مما أثار مخاوف اليهود وإحساسهم بالخطر من تعاظم قوة المسلمين، فاندفعوا للتآمر على الاسلام ونبيه العظيم ﷺ، وراحوا يحرّضون أعداء الاسلام ويخططون لتكوين تجمع عسكري هائل لمهاجمة المدينة والقضاء على الاسلام.

لقد اتصل اليهود بقريش وغطفان واتفقوا معهم على مهاجمة المدينة، إلاَّ أن أنباء هذه المؤامرة تسرَّبت إلى النبي ﷺ فشاور أصحابه، واستقرّ الرأي على حفر خندق حول المدينة لتحصينها، فاستنفر المسلمون لحفر الخندق وشارك هو ﷺ بعملية الحفر.

تأهبت أحزاب الكفر والضلال من قريش وغطفان وبعض القبائل المعادية، وجمعوا رجالهم وأنصارهم ومن تابعهم، فكان تعداد جيشهم عشرة آلاف مقاتل نزلوا قرب المدينة، بينما كان عدد المسلمين ـ كما في رواية الإمام الصادق عليه السلام[1] ـ تسعمائة مقاتل تعبأوا خلف الخندق بقوة وشجاعة.

وشاء الله سبحانه وتعالى أن ينصر دينه ويوفّر لنبيه ﷺ عوامل النصر فيهزم أحزاب الكفر والضلال من دون قتال عنيف بين الطرفين.

---

(١) الكافي: ج٥، ص٤٦ ـ والوسائل: ج١١، ص١٠٥.

وقد ساهمت أربعة عناصر أساسية في تحقيق النصر في هذه المعركة هي:

١ ـ التخطيط العسكري الذي تمثّل بحفر الخندق وغير ذلك. حيث ساهم الخندق في حماية المسلمين والمدينة، وفي حرمان العدو من سرعة الحركة، وفي تطويل أمد المعركة وجعلها على شكل محاور لكي تتفاقم أزمات الأحزاب نتيجة لطول زمن الحرب.

٢ ـ العمل الاستخباري الفعّال الذي قام به رسول الله ﷺ حيث أدى الى ايقاع الخلاف بين قوى الأحزاب.

٣ ـ الدور البطولي الذي قام به علي بن أبي طالب عليه السلام حيث مكّنه الله من قتل عمرو بن عبد ود، وهو من أبرز صناديد قريش ورجالاتها، فانهارت قوة قريش، ويئسوا وشعروا بالضعف والهزيمة.

وقد وصف النبي ﷺ موقف علي عليه السلام يوم الخندق بقوله: لمبارزة علي بن ابي طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة[1].

٤ ـ التأييد الإلهي الذي تمثل بجنود الله الغيبيين الذين نزلوا ساحة المعركة، والذي تمثل أيضاً بالرياح والعواصف الهوجاء التي أصابت معسكر الأعداء فزلزلت استقرارهم، وفرضت عليهم الفرار أذلاًّ من دون تحقيق شيء.

فرزت حرب الخندق المسلمين إلى ثلاث فئات:

١ ـ ضعاف الايمان وهم الذين وقعوا تحت تأثير الوساوس الشيطانية والظنون السيئة فعاشوا الخوف والقلق عندما رأوا الأعداء قد تحالفوا ضدهم، فاهتز إيمانهم وفقدوا عمق الثقة بالله وبنصره.

وقد صوَّر القرآن الكريم موقف هذه الفئة بقوله تعالى: ﴿**إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا**﴾[2].

٢ ـ المنافقون: وقد اتخذوا عدة مواقف ذكرها القرآن الكريم هي:

أ ـ قالوا ما وعدنا الله ورسوله إلاَّ غرورا، لأن الله ورسوله كانا قد وعداهم النصر

---

(١) أنظر: الحاكم، المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص٣٢.

(٢) الأحزاب/١٠ ـ ١١.

والفتح، وهاهم أمام حشود القوى المتحالفة لا يقوون على شيء، قال تعالى: ﴿**وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاَّ غروراً**﴾[١].

ب ـ تثبيط العزائم وشلّ الارادات عن الجهاد، قال تعالى: حكاية عن المنافقين ﴿**وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا**﴾[٢] أي لا تقدرون على فعل شيء امام قدرات الأعداء فارجعوا من حيث أتيتم.

ج ـ خلق الأعذار الواهية من أجل الفرار من ساحة الجهاد.

قال تعالى: ﴿**ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلاَّ فراراً**﴾[٣].

٣ ـ المؤمنون الحقيقيون: وهم الذين ـ لما رأوا الأحزاب ـ لم ينحرفوا قيد انملة عن عقيدتهم وإيمانهم، ولم يضعفوا، ولم يشككوا، ولم يتزلزلوا، وإنما عبَّروا عن ثقتهم بوعد الله ورسوله، وعن صدقهم وإخلاصهم وعمق إيمانهم وثباتهم في مواقع التحدي، قال تعالى: ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاَّ إيماناً وتسليما**﴾[٤].

هـ ـ صلح الحديبية:

عززت الأحداث والمعارك التي وقعت بين رسول الله ﷺ وأعداء الاسلام من المشركين واليهود موقف المسلمين، وغرست هيبتهم في النفوس، فقرر الرسول ﷺ أن يسير بأصحابه إلى مكة ليزور البيت الحرام ويعتمر بعد أن رأى في المنام أنه يدخله هو وأصحابه آمنين من غير قتال كما يشير قوله تعالى: ﴿**لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخُلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً**﴾[٥].

توجه الرسول ﷺ ومعه ما يقرب من ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار نحو مكة في ذي القعدة في السنة السادسة من الهجرة، وهم يحملون السلاح، وقد ساقوا معهم سبعين بدنة هدياً لتنحر في مكة.

---

(١) الأحزاب/١٢.
(٢ـ٣) الأحزاب/١٣.
(٤) الأحزاب/٢٢.
(٥) الفتح ـ ٢٧.

تناهى الخبر إلى قريش ففزعت وظنت أن محمداً ﷺ يريد الهجوم عليها، فراحت تتدارس الموقف وتجهّز نفسها لصد المسلمين وأرسلت سرية بقيادة خالد بن الوليد كمقدمة لجيشها، فبلغ النبي ﷺ خبر قريش واستعدادها لقتاله، ولكي يتجنب المواجهة ـ حيث لم يكن هدفه الحرب ـ غيَّر مسيره وسلك طريقاً غير الطريق الذي سلكته قريش، حتى استقرَّ في وادي الحديبية[1]، فشكا أصحابه جفاف الوادي وانعدام الماء فيها، فأجرى الله سبحانه معجزة خالدة على يده المباركة، تجلَّت عندما توضأ ﷺ وألقى ماء المضمضة في البئر التي كان قد نضب ماؤها، فانفجر الماء وارتوى الجمع.

بعدما حطَّ جيش المسلمين في الحديبية بدأت رحلة التفاوض بين النبي ﷺ وقريش، فبعثت قريش عدة مندوبين على التوالي للتفاوض مع الرسول ﷺ واستيضاح أهدافه، فأبلغهم النبي ﷺ بجواب واحد: «إنا لم نجئ لقتال ولكنا جئنا معتمرين». ولكن قريشاً لم تقتنع بذلك واتهمت بعض مبعوثيها بالجبن والكذب، فقرر النبي ﷺ أن يبعث من جهته سفيراً إلى قريش ليوضح لها الهدف الذي جاء المسلمون من أجله، فاختار خراش بن أمية من خزاعة لأداء المهمة، إلا أن خراشاً ما إن بلغ مكة حتى عقروا بعيره وأرادوا الفتك به لولا أن منعته الأحابيش، فرجع إلى معسكر النبي ﷺ وأخبره بما جرى معه.

لم ييأس رسول الله ﷺ رغم التصلب الذي ابدته قيادة قريش ضد محاولاته ﷺ السلمية، وكأنه كان يرى بنظره الثاقب النتائج الطيبة التي ستجنيها الدعوة الاسلامية إذا ما سادت العلاقات السلمية فترة من الوقت مع قريش، فأرسل عثمان بن عفان إلى مكة فاعتقلته قريش ثلاثة أيام حتى ظن المسلمون أنه قتل.

لم يجد الرسول ﷺ بداً من التهيؤ للقتال.. بعد فشل كل محاولاته الودية لدخول مكة.. وبعد الموقف السيء الذي وقفته قريش من سفرائه اليها، فدعا الناس إلى البيعة على الصمود بوجه قريش، فانهال عليه المسلمون يبايعونه وهو واقف تحت شجرة سميت فيما بعد شجرة الرضوان نسبة إلى البيعة التي تمت تحتها.

تخوفت قريش من استعداد المسلمين للقتال ومبايعتهم الرسول على الصمود بعدما بلغتهم أنباء بيعة الرضوان، فقررت استئناف المفاوضات، وأرسلت سهيل بن عمرو

---

(١) وادي الحديبية: مكان يبعد عن مكة حوالى عشرين كيلو متراً.

سفيراً إلى النبي ﷺ، وكلفته أن يسعى لمصالحة محمد ﷺ شرط أن يرجع عنهم هذا العام، فالتقى سهيل بالرسول ﷺ وجرت مفاوضات طويلة انتهت أخيراً بالإتفاق على إبرام معاهدة هدنة بين الطرفين، وتمت الموافقة على جميع بنودها، ودعا الرسول ﷺ الإمام علياً عليه السلام فكتب الوثيقة، وكان من أبرز بنودها:

١ ـ اتفق الطرفان على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٢ ـ من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رَدَّهُ عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه.

٣ ـ من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده (أي يتحالف معه) كان له ذلك، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم كان له ذلك أيضاً من غير حرج عليه من أحد الطرفين.

٤ ـ ان يرجع النبي ﷺ بمن معه هذا العام على أن يأتي في العام القادم فيدخل مكة ويقيم فيها ثلاثة أيام، ولا يدخل عليها بسلاح إلاَّ سلاح المسافر، السيوف في القُرب.

٥ ـ أن يكون الاسلام ظاهراً بمكة، لا يكره أحد على دينه، ولا يؤذى ولا يُعيَّر.

٦ ـ لا إسلال (سرقة) ولا إغلال (خيانة) بل يحترم الطرفان أموال الطرف الآخر، فلا يخونه ولا يعتدي عليه بسرقة.

٧ ـ أن لا تعين قريش على محمد وأصحابه بنفس ولا سلاح.

وبموجب هذه المعاهدة (البند٣) تحالفت خزاعة مع النبي ﷺ، وتحالفت كنانة مع قريش.

نتائج الحديبية:

يُعبَّر عن المعاهدة التي أُبرمت في الحديبية بـ(الهدنة) حسب مصطلح الفقه الإسلامي، والهدنة هي: المعاقدة على ترك الحرب وتجميد حالة الصراع مع العدو مدة معينة، وهي جائزة إذا تضمنت مصلحة للمسلمين.

والمصلحة انما يشخصها ولي أمر المسلمين ـ الذي بيده أمر الحرب والسلم ـ تبعاً للظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية والأمنية وغيرها، فهو وحده الذي يحدد

بحسب طبيعة المرحلة في كل عصر ما إذا كانت مصلحة المسلمين كامنة في الجهاد أو في الهدنة.

يقول الامام القائد دام ظله الوارف:

«ثم إن المصلحة، في هذا الباب (أي باب الهدنة) لا تنحصر في ما ذكره الفقهاء (رحمهم الله) من ضعف المسلمين وقلة عددهم عن المقاومة، أو رجاء دخول الكفار في الإسلام، أو الحصول على المال الذي يبذلونه للمسلمين. فهناك مصالح أخرى تناسب ظروف العالم في كل عصر، ومنها تخويف عدو آخر طامع في بلاد المسلمين من جهة كونهم مشغولين بالحرب، فإذا رأى ذاك العدو أن الإمام بصدد الصلح مع مقاتليه يخاف ويقطع طمعه، ومنها غير ذلك مما يعرفه الذي بيده أمر تشخيص المصلحة في كل زمان ومكان.

ثم لا يخفى أن المصالح تختلف أهمية، كما أن مصاديق الجهاد تختلف كذلك، ومن المعلوم عدم إمكان التحديد بالنسبة إلى مراتب الأهمية، سواءً في المصالح أم في عمليات الجهاد في سبيل الله، وإنما الأمر في ذلك أي في تشخيص أهمية المصلحة الداعية إلى الهدنة في كل مورد، أو أهمية عملية الجهاد المفروض في ذلك المورد، وكذا مراتب الأهمية، كلها بيد من إليه أمر الجهاد»[1].

وعلى هذا الأساس فلا يصح تعميم احكام مرحلة تاريخية لها ظروفها وأوضاعها الخاصة، على مرحلة حالية من الصراع، فمن الخطأ الاستدلال مثلاً بهدنة الحديبية أو بصلح الامام الحسن عليه السلام مع معاوية على جواز الصلح مع الكيان الصهيوني لاختلاف طبيعة الأوضاع والظروف والعدو والصراع وتبعاً لذلك اختلاف مصلحة المسلمين التي قد تقتضي هدنة في زمن وحرباً في زمن آخر.

ويبدو من نظرة معمقة لأوضاع الاسلام والمسلمين قبل معاهدة الحديبية وبعدها وما تمخض عنها من نتائج.. أن هذه المعاهدة جاءت في مصلحة الاسلام والمسلمين بالكامل، بل كانت فتحاً كبيراً ونصراً عظيماً، لم يدرك أهميتها معظم المسلمين الذين احتجوا على بعض بنودها واعتبروها مجحفةً بحقهم ومكانتهم.

---

(١) مجلة المنهاج: العدد ١٠، ص٢١.

بل لقد كانت هذه المعاهدة من الأحداث السياسية الهامة في تاريخ الاسلام التي مهدت لنتائج عقائدية وعسكرية وسياسية كبرى في مصلحة الاسلام والمسلمين وجعلت إنتصار الاسلام أمراً محسوماً وحتمياً، وهذه بعض نتائجها:

١ ـ إن الهجمات والمؤامرات المتوالية التي قامت بها قريش على امتداد السنوات الست الماضية ضد الاسلام ودولته الفتية لم تترك للنبي ﷺ فرصة لنشر الاسلام على نطاق واسع في شبه الجزيرة وخارجها، فقد كان النبي ﷺ يصرف معظم أوقاته في الدفاع عن الاسلام، ولكن بعد صلح الحديبية وتجميد الصراع مع قريش، عاشت المنطقة فترة من الهدوء والاستقرار أتاحت للرسول ﷺ القيام بنشاط تبليغي واسع في المناطق كافة، فقد نشط ﷺ منذ أواخر السنة السادسة، وحتى فتح مكة، في توجيه سفرائه إلى كبار أمراء العرب المشركين وزعمائهم، يدعوهم إلى الاسلام، في نفس الفترة التي كان قد وجّه فيها سفراءه ومبعوثيه إلى أباطرة العالم وملوكه يعرض عليهم الدعوة التي بُعث بها إلى الناس جميعاً..

٢ ـ ازال صلح الحديبية الموانع المادية والنفسية التي كانت قد وضعتها قريش بين الناس وبين الاسلام، وسمح لمختلف القبائل المشركة المنتشرة في الجزيرة الاتصال بالمسلمين والتعرف عن قرب على مبادىء الاسلام ومفاهيمه وأحكامه، بعد أن منح الصلح تلك القبائل الحرية المطلقة في أن تختار المعسكر الذي تراه مناسباً لتدخل في دينه أو في تحالف معه، كما فتح الصلح المجال أمام المسلمين لينطلقوا بحرية في الدعوة إلى الاسلام داخل مكة وخارجها، فدخل الكثير من الناس في الاسلام، بل لقد دخل فيه خلال سنتين أكثر مما دخل فيه على امتداد السنوات الماضية، بدليل أن الرسول ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، بينما خرج في فتح مكة بعد سنتين على رأس عشرة آلاف مقاتل.

٣ ـ فسح الاتفاق المجال أمام خزاعة للإنضمام الى معسكر المسلمين، وكان انضمامها إلى معسكر الاسلام نصراً كبيراً للرسول وللاسلام والمسلمين ذلك أن جزءاً كبيراً من الأحابيش الذين كانت قريش تعتمد عليهم في حروبها يعدون من بطونها، وبذلك ضمَّ النبي ﷺ جزءاً كبيراً من هذه القوة إلى جانبه وأضعف بذلك مركز قريش الحربي، ومهّد بهذا وذاك لفتح مكة والقضاء على قاعدة الوثنية في المنطقة.

٤ ـ أتاح صلح الحديبية فرصة للنبي ﷺ ليخوض بهدوء صراعاً ضد القوى الأخرى المضادة للإسلام كاليهود الذين تم القضاء عليهم في خيبر والمواقع المجاورة له، والبيزنطيين وحلفائهم العرب الذين ازداد تكالبهم في الجهات الشمالية بازدياد نشاط الإسلام هناك فضلاً عن التجمعات القبلية البدوية المشركة المنتشرة في الصحراء والتي كانت تنتظر الفرصة لانزال الضربات بالمسلمين.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الاجتماعي / ١

نماذج من آداب معاشرته للناس:

امتاز رسول اللّه ﷺ بخلق انساني رفيع وسلوك اجتماعي مميز مع الناس على اختلاف شرائحهم وانتمائهم مما جعله يمتلك عقول وقلوب الناس ويكسب محبتهم ويجذبهم إلى طريق اللّه.

ونستعرض هنا نماذج من خلقه الاجتماعي وآداب معاشرته للناس حسبما ورد في الاحاديث عن أهل البيت عليهم السلام الذين هم أعرف الناس برسول اللّه ﷺ وسلوكه الفردي والاجتماعي:

* كان رسول الله ﷺ طلق الوجه دائم البشر، يواجه الناس بالابتسامة، ويُحسن لقائهم، ويعاملهم بالرفق واللين والرحمة، ولم يكن يبدو على وجهه العبوس أو الحزن أو الانقباض، بل كان بشوشاً ويخفي أحزانه وآلامه.

فقد روى الامام الحسن عليه السلام، عن أبيه عليه السلام قال: **"كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ــ من الصخب وهو شدة الصوت ــ ولا فحاش، ولا عياب، ولا مداح"**.

وكان يخاطب قومه ويقول: **"يا بني عبد المطلب إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر"**.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام أذا وصف رسول الله ﷺ قال: **"كان أجود الناس كفاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة ــ لأول مرة ــ هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، لم أرَ مثله قبله ولا بعده"**.

* وكان ﷺ شديد المدارة للناس وأرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وانفع الناس للناس، حتى لقد روي عنه ﷺ انه قال: **"أمرني ربي بمدارة الناس كما أمرني بالفرائض"**.

وقال ﷺ: **"أعقل الناس أشدهم مداراة للناس، وأذل الناس من أهان الناس"**.

* وكان ﷺ أبعد الناس عن التعالي على مجتمعه أو تمييز نفسه عن أفراده، فقد كان يعيش مع الناس كواحد منهم لا يختلف عنهم في شيء، ويكره أن يتميز عنهم، ولذلك كان ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه، فيأتي الغريب ولا يدري أيهم رسول الله ﷺ حتى يسأل عنه.

* وكان ﷺ يتفقد أحوال الناس، ويسأل الناس عما في الناس، ليطلع على أوضاعهم.

بل لقد روي أنه ﷺ كان إذا فقد الرجل من اخوانه ثلاثة أيام سأل عنه: فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وان كان مريضاً عاده.

* ومن مصاديق رفقه بالأمه، ومعاملته لها بالحسنى: ما رواه يونس الشيباني قال: قال أبو عبد الله ـ الصادق ـ عليه السلام: كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟

قلت: قليل.

قال عليه السلام: **"فلا تفعلوا، فإن المداعبة من حسن الخلق، وإنك لتدخل بها السرور على أخيك، ولقد كان رسول الله ﷺ يداعب الرجل يريد أن يسره"**.

وعن علي عليه السلام: **"كان رسول الله ﷺ ليسر الرجل من أصحابه إذا رآه مغموماً بالمداعبة"**.

* وكان ﷺ يفشي السلام بين الناس، فيسلم حتى على الصغير منهم.

* وكان ﷺ يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم، ويُكنّي من لم يكن له كنية، فكان يدعى بما كناه، ويكني أيضاً النساء اللاتي لهن أولاد، واللاتي لم يلدن، ويكني الصبيان فيستلين به قلوبهم.

* وكان ﷺ لا يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته.

وعن علي عليه السلام: **"ما فاوضه أحدٌ قط في حاجة أو حديث فانصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف، وما نازعه الحديث أحد حتى يكون هو الذي يسكت"**.

* وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط له ثوبه، ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته.

* وكان ﷺ لا يذم أحداً، ولا يعير أحداً، ولا يكلم أحداً بشيء يكرهه، بل كان شديد الحياء حتى لقد ورد أنه ﷺ كان إذا أراد لوم أحد أو عتابه، يعاتبه بكل حياء وخجل.

* وروي أن رسول الله ﷺ كان لا يدع أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتى يحمله معه، فان أبى قال: تقدم أمامي وادركني في المكان الذي تريد.

١٣

الصراع المسلح مع قريش ـ ٤

و ـ فتح مكة:

بعد مرور حوالى السنتين على صلح الحديبية أقدمت قريش على نقضه وذلك عندما انضمت الى حلفائها من قبيلة كنانة التي أقدمت على مهاجمة خزاعة حليفة المسلمين مخالفةً بذلك الهدنة القائمة بين الطرفين بموجب الصلح، فاستنصرت خزاعة رسول الله ﷺ، وشعرت قريش بخطورة المجازفة التي أقدمت عليها فأوفدت أبا سفيان إلى المدينة، ليؤكد العهد مع رسول الله ﷺ وليتفادى نتائج الأحداث، إلاَّ أن محاولاته في المدينة لم تجدِ نفعاً بعدما رفض النبي مقابلته لنقضه العهد.

قرر النبي ﷺ التوجه إلى مكة لمواجهة قريش، فاستنفر أصحابه وجهز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وغيرهم من القبائل.

وقرر أن يتحرك سراً ليباغت قريشاً، وليصادر إمكانية الدفاع من يدها، ولئلا يقع قتال في مكة، فدعا ربه قائلاً ﷺ: «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها**».

اكتشف حاطب بن بلتعة، وكان من المسلمين، أن النبي ﷺ يريد مكة، فكتب إلى قريش بذلك وأعطى الكتاب إلى امرأة، فوضعته في شعرها وتوجهت إلى مكة، فعرف النبي ﷺ بهذا العمل الجاسوسي الخطير، وبعث علياً عليه السلام والزبير بن العوام ليقبضا عليها، فأدركاها في منطقة ذي الحليفة، وانتزع منها علي عليه السلام الكتاب بالتهديد والقوة وأرجعاها إلى المدينة.

ويقول المؤرخون: إن الله أنزل بهذه المناسبة: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق**﴾[1].

تحرّك جيش المسلمين في العاشر من شهر رمضان المبارك سنة ثمان للهجرة سراً، حتى وصل إلى مشارف مكة وطوّقها.

إستخدم النبي ﷺ الحرب النفسية في هذه الغزوة، فأشعل النيران على الجبال على مقربة من مكة، ليشعر قريشاً بقوة وكثرة الجيش ويثير الرعب في قلوب الطغاة، ويحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال.

خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء ليتجسسوا الأخبار ففوجئوا بالنيران تطوق مكة، وفي هذه الأثناء التقى العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان في الطريق خارج مكة فأشار عليه أن يذهب به الى رسول الله ﷺ، وبعد أن أخذ له الأمان رتّب له لقاءً مع النبي ﷺ وحصل اللقاء صبيحة اليوم التالي، فقال له النبي ﷺ: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلاّ الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئاً، بعد.

فقال ﷺ: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ﷺ؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

تدخل العباس لإنقاذ أبي سفيان فخاطبه قائلاً له: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، فشهد بذلك، وفي نفسه من نبوة محمد ﷺ أشياء وأشياء وظلت تلك الأشياء إلى أن مات.

وقد حاول العباس أن يتعامل مع التركيب النفسي لشخصية أبي سفيان ويوجه موقعه الاجتماعي لصالح الفتح المبين فقال لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله إنه يحب الفخر، فاجعل له شيئاً يكون في قومه!

فأمر ﷺ من ينادي في الناس: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن.

---

(١) الممتحنة . ١.

بعد أن أعطاه الرسول ﷺ هذه الميزة ارضاءً لخصلة الفخر في نفسه، أخذه العباس إلى المكان الذي عيَّنه له رسول الله ﷺ ليرى جنود الله وهي تمرّ أمامه في استعراض عسكري لاظهار القوة لم تعهد له مكة نظيراً من قبل.

ودخل رسول الله ﷺ مكة بتلك الحشود التي تنساب خلفه فاتحاً من غير قتال، فلما انتهى إلى الكعبة تقدم على راحلته فاستلم الركن وكبَّر، فكبَّر المسلمون لتكبيره، ثم طاف بالبيت، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً وكان هبل أعظمها، فقال لأمير المؤمنين عليه السلام: أعطني يا علي كفّاً من الحصى، فقبض له أمير المؤمنين عليه السلام كفّاً فناوله، فرماها به وهو يقول: ﴿**قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**﴾ فما بقي منها صنم إلا خرَّ لوجهه، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد فطرحت وكسُرت، ثم أمر أن تفتح الكعبة ففتحت له ودخلها فصلى فيها وأزال كل ما كان فيها من تماثيل وصور ثم أشرف من بابها على الناس وقال ﷺ: «**الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا ان كل مأثرة أو دم أو رباً في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين، إلاَّ سدانة الكعبة وسقاية الحج**»، ثم توجه إلى المكيين وسألهم: ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم. فقال ﷺ: «**إني أقول لكم ما قال أخي يوسف لأخوته، لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وبذلك ضرب الرسول ﷺ للأجيال في كل عصر وزمان مثلاً في الرحمة والعفو والترفع عن الحقد والانتقام.

ولعل أهم السمات التي برزت في غزوة الفتح هي التالية:

١. **الإعداد الجيد للمعركة:** فقد بلغ عدد جيش الفتح عشرة آلاف مقاتل، مجهزين أحسن تجهيز.

٢. **المحافظة على السرية التامة:** فقد أمر النبي ﷺ أصحابه بالاعداد للحرب، ولكنه لم يعلن عن وجهته، حتى للمقربين إليه، وعندما اضطر قبيل التحرك للإعلان عن وجهته لبعض أصحابه أمرهم بأن يكتموا الأمر، كي يستطيع تحقيق المفاجأة للعدو. كما اتخذ عدة اجراءات في المدينة تمنع من تسرب المعلومات إلى العدو وقد تمكن جيش المسلمين، نتيجة التشدد في المحافظة على السرية التامة، من مباغتة المشركين، والظهور فجأة على مقربة من مكة بقوات كبيرة لا قبل لقريش وحلفائها بمواجهتها.

٣. **استخدام الحرب النفسية:** فقد تعمد النبي ﷺ نشر المسلمين على بقعة كبيرة من الأرض على مشارف مكة فأشعلوا نيرانهم ليلاً ليرى العدو كثرتهم.

٤. **حكمة التصرف بعد النصر والتواضع:** فلم يبدر من الرسول ﷺ بعد دخوله مكة أي تصرف يمكن أن يثير المنهزمين، فهو فاتح حكيم، وهو يعود إلى بلده وأهله، لا يحمل غلاً ولا حقداً، ولا يجد في انتصاره وسيلة للتكبر أو التجبر، ويعبر عن سروره بالفتح بتواضع جمٍّ.

واستطاع في موقف انساني نبيل أن يستميل أهل مكة، وهم الذين وقفوا ينتظرون حسابهم، فإذا به ﷺ يعفو عنهم ويقول لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الاجتماعي / ٢

صفة مجلسه ﷺ:

عن الامام الحسين عليه السلام قال: سألت أبي عن مجلس رسول الله ﷺ فقال عليه السلام:

كان رسول الله ﷺ لا يجلس، ولا يقوم إلا على ذكر الله جل اسمه، ولا يوطن الاماكن وينهى عن ايطانها (أي لا يتخذ لنفسه مجلساً خاصاً يتميز به) وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يعطي كلاً من جلسائه نصيبه، حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجة، صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو ميسور من القول، قد وسع الناس منه بسطه وخلقه، فكان لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواءً.

مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، ولا ترفع فيه الأصوات، ولا يوهن فيه الحرم، ولا تثنى فلتاته (أي لا تظهر هفواته) متعادلون متفاضلون فيه بالتقوى، متواضعون، يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب..

وأما سيرته مع جلسائه، فيقول الحسين عليه السلام نقلاً عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام: كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب (من الصخب وهو شدة الصوت) ولا فحاش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، فلا يؤيس منه ولا يخيب فيه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والاكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيره، ولا يطلب عورته (عيوبه) ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، أذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، متى تكلّم انصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى ان كان أصحابه ليستجلبونه، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الثناء إلا عن مكافيء، ولا يقطع على أحد حديثه، حتى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام[1].

وفي مشاركته ﷺ في الحديث الذي كان يدور في المجلس، يقول زيد بن ثابت: كنا إذا

(١) أخلاق النبي للأصبهاني ص ١٧.

جلسنا إليه ﷺ، إن أخذنا بحديث في ذكر الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا[1].

وفي سمو اخلاقه مع جلسائه أيضاً، ما أشار اليه الامام الصادق عليه السلام في حديث له: **"كان رسول الله ﷺ يقسم لحظاته (نظراته) بين أصحابه فينظر إلى ذا، وينظر إلى ذا بالسوية، ولم يبسط (يمد) رسول الله ﷺ رجليه بين أصحابه، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله ﷺ يده من يده حتى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده"**[2].

(١) الكافي: ج٢ ص ٦٧١.

(٢) مكارم الأخلاق ص ١٤.

١٤

الصراع مع القبائل المشركة الأخرى

غزوة حنين:

ولَّد فتح مكة والانتصار العظيم الذي حققه المسلمون على قريش وقاعدتهم الوثنية ردَّ فعل عنيفاً لدى القبائل العربية المشركة في الشمال وعلى رأسها هوازن وثقيف، ورأت أن تتحرك لتوجيه ضربة للمسلمين قبل أن يستفحل الخطر وتجد هذه القبائل نفسها محاطة بالمسلمين من كل مكان.

وكانت هذه القبائل ولدى سماعها بمغادرة النبي ﷺ المدينة - قبل فتح مكة على رأس عشرة آلاف مقاتل - قد تجمعت خوفاً من ان يغزوها المسلمون، وقال زعماؤها بعد فتح مكة: «قد فرغ لنا محمد، فلا ناهية له دوننا، والرأي أن نغزوه».

فنظموا جيشاً كبيراً من هوازن وثقيف ـ ولحق بهما فيما بعد قبائل نصر وجشم وسعد بن بكر ـ بقيادة مالك بن عوف زعيم هوازن. فرأى هذا ان يسير مع المقاتلين نساؤهم وأطفالهم وأموالهم كي يستميتوا في القتال...

عندما سمع النبي ﷺ نبأ هذا التحرك الوثني بعث أحد أصحابه ـ عبد الله بن أبي حدرد الاسلمي ـ مستخبراً، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم، فتسلل الرجل إلى مواقع العدو وجمع المعلومات اللازمة وعاد ليخبر الرسول ﷺ بما أجمع عليه هؤلاء من قتال المسلمين.

فانطلق النبي ﷺ من مكة في مطلع شوال على رأس اثني عشر ألف مقاتل كان من

ضمنهم ألفان من المكيين الذين أسلموا بعد الفتح. وسرعان ما وجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى اجتياز وادٍ من أودية تهامة، شديد الإنحدار يُدعى حنيناً، في طريقهم لمواجهة التجمع الوثني، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الوادي واتخذوا مواقع لهم في شعابه وعند مضيقه، وتهيئوا للانقضاض على المسلمين في جو يسوده المطر والضباب، وما أن دخل المسلمون الوادي حتى فاجأهم أعداؤهم بهجوم مباغت، فأصابهم الفزع والاضطراب وفروا راجعين لا يلوون على شيء، ولم يثبت مع رسول الله ﷺ غير علي بن أبي طالب عليه السلام وجماعة من بني هاشم، فأخذ النبي ﷺ ينادي: «**أيها الناس هلموا إليَّ، أنا رسول الله. أنا محمد بن عبد الله**».

ثم أمر عمه العباس ـ وكان جهوري الصوت ـ أن يلحق بالفارين ويناديهم. ويذكرهم بالعهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ، فأخذ العباس يناديهم: «**يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرون؟! هذا رسول الله..**».

فسمع المسلمون صوت العباس، وأنزل الله السكينة على قلوب المؤمنين منهم، فبادروا للعودة إلى ساحة المعركة واستقبلوا العدو بصدورهم، وقاتلوا ببسالة على قلتهم بعدما رأوا رسول الله ﷺ يباشر القتال بنفسه بشجاعة ومن حوله علي عليه السلام ومن معه من بني هاشم يقاتلون إلى جانبه.

وعندما رأى النبي ﷺ أصحابه يجابهون المشركين وقد أحتدم القتال بينهم قال ﷺ: «**الآن حمي الوطيس**».

وتمكن علي عليه السلام من قتل حامل راية هوازن وبدأت الكفة تميل لصالح المسلمين، وما لبث المشركون أن أخذوا بالتراجع، وانقض عليهم المؤمنون يعملون فيهم قتلاً وأسراً، فأصيبوا بهزيمة نكراء وفروا لا يلوون على شيء، تاركين وراءهم النساء والأولاد والأموال وما أن عاد إلى الميدان أولئك الذين تراجعوا إلى الخلف من المسلمين، حتى وجدوا أسارى المشركين مكتفين بين يدي رسول الله ﷺ.

أوطاس:

تراجع المشركون بقيادة مالك بن عوف صوب الطائف، وعسكر بعضهم في أوطاس، وتوجهت فئة أخرى نحو نخلة، فقرر النبي ﷺ ملاحقتهم ولم يتح لهم فرصة يستردون

فيها قواهم ويعيدون تنظيم صفوفهم، فأرسل ﷺ على الفور قوة من فرسان المسلمين لمطاردة أولئك الذين توجهوا نحو نخلة، وقوة ثانية كُلفت بقتال المشركين في أوطاس، وهناك أوقع المسلمون بهم شرَّ هزيمة.

وقد حصل المسلمون نتيجة معركة حنين وأوطاس على غنائم كثيرة بلغت على حد بعض الروايات: ستة آلاف من السبي، وأربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة.

وقد أمر رسول الله ﷺ بحبس السبايا والأموال الكثيرة في مكان يدعى (الجعرانة) مجمداً التصرف بها إلى أن يعود من مطاردة العدو الذي لجأ إلى الطائف.

حصار الطائف:

تمكن مالك بن عوف من الفرار مع جيش هوازن وثقيف إلى الطائف، فانطلق النبيﷺ بجيش المسلمين صوب الطائف حيث اعتصم المنهزمون بحصونها المنيعة وأعدوا العدة للقتال، ونزل ﷺ قريباً من الحصون حيث عسكر هناك، وجرت مناوشات بين الطرفين إستشهد خلالها جماعة من المسلمين بنبال العدو، الأمر الذي دفع الرسول ﷺ إلى إبعاد معسكره عن مدى النبال التي كانت تنطلق من حصون ثقيف. وظل يحاصرهم بضعاً وعشرين يوماً، حيث استمر القتال خلالها عنيفاً حيناً ومتقطعاً أحياناً. وقد استعمل فيه المسلمون آلات الحصار لأول مرة كالمنجنيق والدبابة وقد تمكنت قوة من المسلمين من الزحف بدباباتهم إلى جدار الطائف وبدأوا بخرقه لولا أن أرسلت عليهم ثقيف قطعاً من حديد محمية بالنار اضطرتهم إلى الانسحاب.

ورداً على المقاومة العنيفة التي أبداها المشركون، أمر النبي ﷺ بتقطيع كروم ثقيف المنتشرة في البساتين المجاورة لإرغامهم على الإستسلام ولكن من دون جدوى.

عندها لم يرَ النبي ﷺ ضرورة للإستمرار في الحصار، خاصة وأنه ﷺ أصبح على أبواب شهر ذي القعدة الذي هو من الأشهر الحرم، وكان ﷺ يدرك أن الطائف ستجد نفسها في يوم قريب أشبه بجزيرة منعزلة بعد أن بدأ الاسلام يعم المنطقة وأنها ستسعى إليه عاجلاً أم آجلاً طالبة الإنتماء إلى الدين الجديد، إضافة إلى انه ﷺ لم

يعد يرى خطراً من ترك الطائف إلى فرصة أخرى إن هي أصرت على موقفها المعادي للإسلام والمسلمين، لذلك كله قرر الرسول ﷺ رفع الحصار عنهم. وأمر أن يؤذن في الناس بالرحيل، فقفل المسلمون عائدين بعد بضع وعشرين يوماً من الحصار، إلى الجعرانة حيث جمعت السبايا والغنائم الكثيرة التي استولى عليها المسلمون في حنين.

أدركت هوازن حراجة الموقف وأن نساءهم وأموالهم ستصبح غنيمة للمسلمين فيما لو أصروا على موقفهم، وبنتيجة التداول فيما بينهم اتفق رأي أكثريتهم على الاستسلام، فأرسلوا وفداً منهم إلى رسول الله ﷺ وأعلنوا إسلامهم وكان النبي ﷺ لا يزال في الجعرانة، ثم تتابعت وفودهم معلنة إسلامها فرد عليهم النبي ﷺ نساءهم وأموالهم، وجاء زعيمهم مالك بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأسلم، ورد عليه الرسول ﷺ أهله وماله حيث كان ﷺ قد وعده بذلك إن جاءه مسلماً.

بعد تقسيم الغنائم على المسلمين في الجعرانة رجع النبي ﷺ إلى مكة فأدى مناسك العمرة، وولىّ عتاب بن أُسيد إمرة مكة، ومعاذ بن جبل تفقيه الناس في الدين وتعليمهم القرآن، وعاد ﷺ بالمهاجرين والأنصار إلى المدينة المنورة حيث دخلها في أواخر ذي القعدة بعد انتصارين من أعظم الانتصارات التي حققها في صراعه مع الوثنية وهما: فتح مكة، وهزيمة جيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل في حنين، وبذلك تم القضاء على أكبر معاقل الشرك والوثنية في المنطقة.

إن نظرة تحليلية على أحداث معركة حنين تقودنا إلى تسجيل الأمور التالية:

أولاً: إن السبب في هزيمة المسلمين في بداية المعركة هو غرور المسلمين بأنفسهم وإعجابهم بكثرتهم وقوتهم حيث لم يسبق لهم أن واجهوا عدواً بهذا العدد الكبير من المقاتلين، فأراد الله سبحانه أن يعلمهم أن الكثرة لا تغني شيئاً عندما تفقد عناصر الإيمان والاخلاص والصبر والتوكل على الله.

وقد كانت الكثرة في حنين تفقد هذه العناصر فقد كان فيهم ألفا شخص ممن أسلم حديثاً وبعد فتح مكة، وكان فيهم جماعة من المنافقين، وفيهم من سيطرت عليه روح الكسب والغنيمة، فخلى الله بينهم وبين عدوهم ولم يتدخل في البداية لغرورهم حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

قال تعالى: ﴿**ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين**﴾[1].

وهذا يعني أن الكثرة ليست سبباً للنصر وأن العبرة ليست في الكمية وإنما في النوعية التي تملك الإيمان وروح الاستشهاد في سبيل الله.

ثانياً: ان الذين عادوا إلى ساحة القتال وقاتلوا بشجاعة فائقة إلى جانب النبي ﷺ وعلي عليه السلام هم القلة المؤمنة فهؤلاء هم الذين حققوا الانتصار في حنين وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة والطمأنينة والدعة فثبتوا في الظروف الحرجة لما يملكونه من عقيدة راسخة، وإيمان قوي، وشجاعة فائقة، وإرادة صلبة، ويقين راسخ بلطف الله ونصره.

قال تعالى: ﴿**ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذَّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين**﴾[2].

وعليه فالسر في انتصارهم النهائي هو ثبات النبي ﷺ وعلي عليه السلام والقلة من الصحابة الذين يملكون الإيمان، فهؤلاء هم الذين أنزل الله عليهم السكينة التي تعني نوعاً من الهدوء والإطمئنان الذي يبعد عنهم كل أنواع الشك والخوف والقلق وأيدهم وشدَّ أزرهم وقوى معنوياتهم، وأوجد روح الثبات والاستقامة في نفوسهم وقلوبهم بجنود من الملائكة لم يروها..

وجملة (على رسوله وعلى المؤمنين) إشارة إلى أن المنافقين وأهل الدنيا الذين كانوا مع المسلمين في المعركة لم ينالوا سهماً من السكينة والاطمئنان، بل كانت السكينة من نصيب المؤمنين فقط ولذا قال (وعلى المؤمنين) ولم يقل (وعليكم) مع أن جميع الجمل في الآية أتت بصيغة ضمير الخطاب (كم).

ونزول السكينة على الرسول ﷺ لرفع الخوف الذي كان خوفاً على الرسالة والمؤمنين خاصة بعد فرار أصحابه من المعركة وإلا فهو كالجبل الشامخ لا تزلزله الرياح والعواصف، وكذلك ابن عمه علي عليه السلام.

---

(١) التوبة . ٢٥.

(٢) التوبة . ٢٦.

ثالثاً: إن على المسلمين أن يعتبروا من حوادث حنين فلا يغتروا بكثرة العدد والعتاد فالكثرة وحدها لا تغني شيئاً، بل المهم في ساحة الجهاد وجود المؤمنين المنصهرين بالإيمان ذوي الإرادة الصلبة والعزيمة الراسخة حتى لو كانوا قلة.

فإن القلة هي التي استطاعت أن تحوّل الفشل في حنين إلى إنتصار كبير على العدو وكانت الكثرة بسبب غرورها في بادىء الأمر سبباً للفشل والفرار من ساحة المعركة.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الاجتماعي / ٣

تقديمه أهل الفضل والتقوى:

عن الإمام الحسين عليه السلام قال: سألت أبي عن دخول النبي ﷺ فقال: كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك.

وكان إذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً لله عز وجل، وجزءاً لأهله وجزءاً لنفسه، ثم جزّء جزءه بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة والخاصة، ولا يدخر عنهم شيئاً.

فكان من سيرته في جزء الأمة: إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم وأصلح الأمة من مسألته عنهم واخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: ليبلغ الشاهد الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته.

ويمضي الحسين عليه السلام قائلاً: فسألته عن مخرج رسول الله ﷺ كيف كان يصنع فيه؟

فقال عليه السلام: كان رسول الله يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا يفرقهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس الفتن، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، فيحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

١٥

الصراع مع اليهود ـ ١

من المعلوم تاريخياً ومن خلال سير الأحداث أن اليهود أشد الناس حقداً على الاسلام والمسلمين، وقد وقفوا في مواجهة هذا الدين من أول يوم ظهوره بالرغم من كل الحقائق التي كانوا يعرفونها عنه إستناداً إلى ما بشرت به توراتهم وكتبهم.

أسباب عداء اليهود للاسلام:

ولعل من أسباب عداء اليهود للاسلام والمسلمين هو:

أولاً: أنهم قد وجدوا أن هذا النبي ﷺ يدعو الناس الى دين هو نظام كامل وشامل للحياة، وأن هذا الدين قد جاء بنظام متكامل ومتوازن، واهتم بمحاربة الربا والاحتكار، وجميع أنواع وأشكال استغلال إنسان لإنسان آخر، وجعل في أموال الناس حقاً معلوماً للسائل والمحروم، فلم ينسجم ذلك مع أطماعهم، بل رأوه يتنافى مع تلك الأطماع ومع أهدافهم ومصالحهم ومع نظرتهم للكون والحياة والانسان.

ثانياً: لقد رأى اليهود كيف أن الاسلام يزداد قوة واتساعاً ونفوذاً يوماً بعد يوم، ورأوا أن نفوذهم كمصدر وحيد للمعارف والعلوم بدأ ينحسر ويتلاشى أمام حركة الاسلام ومعارفه وأحكامه، ورأوا أن هذا الدين يرفض إعطاء الإمتيازات على أساس عرقي وهو يساوي بينهم وبين غيرهم، ويُبطل مزاعمهم وادعاءاتهم بأنهم شعب الله المختار بالتزامه بمبدأ ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ ﴿**ولا فضل لعربي على أعجمي إلاّ**

بالتقوى﴾ وهذا الأمر كان يزلزل مكانتهم ويفقدهم الشيء الذي يعتزون به ويتسامون به على الناس.

ثالثاً: إن يهود المنطقة آنذاك كانوا أصحاب أموال وأملاك كثيرة كما كانوا أصحاب وجاهة وزعامة ورئاسة، وكان يمتد نفوذهم الى المنطقة وأهلها، ولكن انتشار الاسلام المستمر في الجزيرة العربية جعلهم يشعرون بأنهم بدأوا يفقدون سيطرتهم وهيمنتهم على المنطقة وأهل الشرك، فبدأوا ينصبون العداء للنبي ﷺ وللاسلام والمسلمين.

رابعاً: حسدهم للعرب أن يكون النبي الذي تعد به التوراة منهم وليس إسرائيلياً، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك بقوله تعالى: **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا بِهِ كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ، بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**[1].

ولعل هذا هو السر في أنهم حينما طلب النبي ﷺ منهم أن يدخلوا في الاسلام امتعضوا، وأخذوا يخاصمون رسول الله ﷺ.

والخلاصة: إن الاسلام حوّل اليهود من موقع القوة والنفوذ بسبب سياساتهم وطروحاتهم إلى موقع الضعف والهوان، وأبطل إدعاءاتهم بالتفوق الاجتماعي والعلمي، وقضى على اليهودية المحرَّفة وعلى أحلام بني اسرائيل، فامتلأت قلوبهم بالغيظ والأحقاد على هذا الدين وأتباعه فبدؤا بمعاداة الاسلام ومواجهته بأشكال التآمر والغدر والخيانة.

اليهود في مواجهة الاسلام:

حاول اليهود مواجهة الاسلام والمد الاسلامي بكل ما لديهم من قوة عبر الأساليب التالية:

١ ـ تشكيك البسطاء وضعاف النفوس بالاسلام.

---

(١) البقرة، ٨٩ ـ ٩٠.

٢ ـ طرح الأسئلة التعجيزية على النبي ﷺ بهدف تعجيزه وإفشال دعوته، للإيحاء للناس بعدم صدقه في إدعائه للنبوة لإنه يفترض بالنبي أن يكون قادراً على مثل هذه الأمور، وقد حدثنا القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**يَسأَلُكَ أَهْلُ الكِتَّابِ أن تُنزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ، فَقَدْ سأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً**﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الذينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أو تَأتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الذينَ مِنْ قبلهم مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ...**﴾[٢].

٣ ـ الضغط الاقتصادي على المسلمين، فقد ذكر المؤرخون: أن رجالاً من أهل الجاهلية باعوا يهوداً بضاعة، ثم أسلموا وطلبوا من اليهود دفع الثمن، فقالوا: ليس علينا أمانة ولا قضاء عندنا، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه، وادّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فجاء الرد عليهم في قوله تعالى: ﴿**ومنْ أهلِ الكتابِ منْ إن تأمَنْهُ بقنطارٍ يُؤدِهِ إليكَ، ومنهُمْ منْ إن تأمَنْهُ بدينارٍ لا يؤدِّهِ إليْكَ إلاّ مَا دُمْتَ عليه قائماً ذَلكَ بأنَّهمْ قالُوا ليسَ علينَا في الأميينَ سبيلٌ ويقولُونَ على اللهِ الكذبَ وهم يعلمُونَ**﴾[٣].

وأيضاً فقد رفض زعماء اليهود أن يقرضوا المسلمين مالاً في بداية إقامتهم في المدينة، حيث كان المسلمون في ضنك مادي شديد، وقد أجابوا رسول الله حينما طلب منهم القرض بقولهم: احتاج ربكم أن نُمِدَّه؟ فنزل قوله تعالى: ﴿**لقدْ سمعَ اللهُ قولَ الذينَ قالُوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ سنكتبُ ما قالُوا...**﴾[٤].

٤ ـ تحريض أعداء الاسلام ومساعدتهم بكل ما أمكنهم ولو بالتجسس.

٥ ـ إثارة الفتن بين شرائح المسلمين ولا سيما بين الأوس والخزرج، وبين المسلمين والمشركين.

٦ ـ تآمرهم على حياة النبي الأعظم ﷺ، وتحريضهم الناس عليه.

٧ ـ محاولات إثارة البلبلة، وتشويش الأوضاع، بإشاعة الأكاذيب وتخويف ضعاف النفوس من المسلمين وتثبيط الناس عن الخروج للجهاد كما في غزوة تبوك وغيرها..

٨ ـ تآمرهم مع المنافقين ضد الاسلام.

٩ ـ نقضهم للعهود والمواثيق التي أبرموها مع النبي ﷺ في المدينة في كل مرة.

---

(١) النساء ـ ٥٣.
(٢) البقرة ـ ١١٨.
(٣) آل عمران ـ ٧٥.
(٤) آل عمران ـ ١٨١.

قال تعالى: ﴿**إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون**﴾[1].

موقف النبي ﷺ من اليهود:

إن جميع محاولات اليهود للقضاء على الاسلام والمسلمين باءت بالفشل الذريع، بسبب وعي القيادة الاسلامية العليا.

ولقد صبر النبي ﷺ في البداية على مؤامراتهم وخياناتهم الكبيرة تلك، تفادياً لحرب تجرُّ الويلات على الناس في مقره الجديد، حتى طفح الكيل، وصعّدوا من تحدياتهم وأصبحوا يشكلون خطراً حقيقياً، لا سيما وأنهم يعيشون في قلب المجتمع الاسلامي، ويعرفون كل مواقع الضعف والقوة فيه، فكان لا بد من صياغة التعامل معهم على أساس الحزم والقوة بدلاً من العفو والتسامح والرفق، فليس من المصلحة أن يُترك اليهود يعيثون في الأرض فساداً، وينقضون العهود والمواثيق، ويسددون ضرباتهم للمسلمين كيف وأنى شاءوا، بل لا بد من الرد الحاسم والحازم والعادل على كل اعتداء، ومواجهة كل تحدٍ وتآمر وكيد وخيانة قبل أن يكون الندم حيث لا ينفع الندم.

ويمكننا أن نقول: إن النبي ﷺ واجههم بعد أن اتضح نقضهم لكل العهود والمواثيق بإسلوبين أو إتجاهين.

الاتجاه الأول: الاغتيالات المنظّمة لرموزهم وبعض أفرادهم.

الاتجاه الثاني: الحرب الشاملة والمصيرية ضدهم.

الاتجاه الأول: وفيه اتبع النبي ﷺ أسلوب الاغتيالات المنظّمة لبعض أفرادهم ورموزهم الذين ظهر كيدهم، وأعلنوا الحرب على الإسلام من خلال الجهر بالتحريض على النبي ﷺ وهجائه، والتعرض لنساء المسلمين بالأذى، وكانوا يشكلون خطراً جدياً على صعيد استقرار المنطقة، فتم اغتيال أبي عفك اليهودي الذي كان يحرض على رسول الله ﷺ ويقول فيه الشعر، على يد سالم بن عمير، وقُتلت العصماء بنت مروان اليهودية على يد عمير بن عون ليلاً، حيث كانت تعيب الاسلام والمسلمين، وتؤنّب

(١) الأنفال، ٥٥، ٥٦.

الأنصار على اتباعهم لرسول الله ﷺ، وتقول الشعر في هجوه ﷺ، وتحرض عليه، وأرسل النبي ﷺ أحد أصحابه في السنة الثالثة بعد الهجرة، فاغتال كعب بن الأشرف الذي كان قد ذهب إلى مكة بعد حرب بدر وحرض المشركين ولم يخرج منها حتى جمع أمرهم على حرب رسول الله ﷺ، وعندما سأله المشركون: أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ أجابهم: بل أنتم أهدى منهم سبيلا، وكان يهجو النبي في شعره، ويتعرض بالأذى لنساء المسلمين، وهكذا تتابعت عمليات القتل لبعض أفراد اليهود فاغتيل ابن سنينة، وأبو رافع بن أبي الحقيق من يهود خيبر وغيرهما...

لقد كانت هذه العمليات بمثابة جزاء عادل، وإنذار حازم لكل من ينقض عهداً ويتآمر على مصلحة الاسلام العليا، وقد نُظمتْ ونُفِّذتْ ببراعة فائقة وذكاء وعبقرية، فأرعبتْ اليهود وأخافتهم، ولا سيما بعد قتل ابن الأشرف، حتى أنه لم يبق في المدينة ومحيطها يهودي إلاّ وهو خائف على نفسه.

الاتجاه الثاني: ولكن بالرغم من ذلك، فإن اليهود لم يتراجعوا عن الدس والتحريض والتآمر، واستمروا في عنادهم وتماديهم في إيذاء المسلمين ونشر الفساد، ونقضهم للمعاهدات التي وقّعوا عليها بملء اختيارهم وكان ذلك يتفاقم بين حين وآخر إلى درجة بالغة الخطورة، فكان لا بد من التعامل معهم بأسلوب آخر فكانت الحرب الشاملة والمصيرية ضدهم حيث لا يمكن اجتثاث مادة فسادهم بغير ذلك.

فحاربهم النبي ﷺ في داخل المدينة (بني قينقاع، وبني النضير) وحارب في محيطها (بني قريظة) وحاربهم في خيبر التي كانت تمثل المعقل الأساسي لهم في شبه الجزيرة العربية.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الإجتماعي / ٤

تواضعه ﷺ

كان رسول الله ﷺ بقدر ما يحث على التزام فضيلة التواضع في التعامل والعلاقات الاجتماعية، فإنه من ناحية عملية كان المتواضع الأول في المسلمين بل النموذج المثالي الرائع في التواضع وبساطة العيش.

* عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **"كان رسول الله ﷺ إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس حين يقعد"**.

* وعنه عليه السلام أيضاً قال: **"ما أكل رسول الله ﷺ متكئاً منذ أن بعثه الله عز وجل حتى قبض، وكان يأكل أكلة العبد ويجلس جلسة العبد"**. قلت: ولم ذاك؟ قال: **"تواضعاً لله عز وجل"**.

* وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعتقل الشَّاة ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير.

* وعلى عظمته وعلو مقامه فانه ﷺ كان يبدو فرداً من الناس لم يحط نفسه بهالة خاصة، فقد كان يجلس بين أصحابه كواحد منهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم رسول الله ﷺ حتى يسأل عنه، وكان قريباً سهلاً هيناً يلتقي بأبعد الناس وأقربهم: أصحابه وأعداءه وأهل بيته والسفراء والوفود بلا تصنع ولا تكلف، فكل شيء كان يصدر عنه كان طبيعياً على سجيته.

* ومن تواضعه أنه كان يبدأ بالسلام على الناس، وينصرف إلى محدثه بكله: الصغير والكبير والمرأة والرجل.

* كان آخر من يسحب يده إذا صافح، وإذا أقبل جلس حيث ينتهي به المجلس، لم يكن يأنف من عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار أو مسكين، وكان يذهب إلى السوق، ويحمل بضاعته بنفسه، ولم يستكبر عن المساهمة في أي عمل يقوم به أصحابه وجنده، فقد ساهم في بناء المسجد في المدينة وعمل في حفر الخندق في غزوة الأحزاب، وشارك أصحابه في جمع الحطب في احد سفراته، وعندما قال له أصحابه نحن نقوم بذلك عنك قال ﷺ: **"قد علمت أنكم تكفوني ولكن أكره أن أتميز عنكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً عن أصحابه"**.

* وكان متواضعاً في ملبسه ومشربه ومأكله ومسكنه.

* وعن الامام الصادق عليه السلام قال: "**قال رسول الله ﷺ أمرني ربي بسبع خصال: حب المساكين والدنو منهم. وأن أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله. وأن أصل رحمي وإن قطعني. وأن أنظر إلى من هو أسفل مني. ولا أنظر إلى من هو فوقي. وأن لا يأخذني في الله لومة لائم. وأن أقول الحق وإن كان مرّاً. وأن لا أسأل أحداً شيئاً**".

١٦

الصراع ضد اليهود ـ ٢

الحروب الشاملة ضد اليهود:

أ. غزوة بني قينقاع:

إن ممارسات اليهود قد هيأت الجو للتخلص من بغيهم وإفسادهم ومكرهم على مراحل، وكان أول ما قام به النبي ﷺ هو مواجهة بني قينقاع وإجلائهم عن المدينة المنورة.

والسبب الذي حمل الرسول ﷺ على البدء باجلاء بني قينقاع دون سائر اليهود هو: أنهم كانوا يسكنون داخل المدينة وفي حي من أحيائها، وكانوا أول من غدر وخان من اليهود، فكان لابد للنبي ﷺ من أن يطهّر المدينة من هذا العدو الداخلي الذي يطعن في الظهر، ويحيك المؤامرات، ويرتكب الخيانات.

ويذكر المؤرخون في هذا الصدد: أن بني قينقاع كانوا قد عاهدوا النبي ﷺ على المسالمة وعدم معاونة الأعداء، فلما كانت حرب بدر أظهروا البغي والحسد ونقضوا العهد، وكانوا أول من استجاب لطلب قريش في نصب العداء للمسلمين والغدر بهم، وقد صعّدوا من تحديهم للمسلمين عندما دخلت امرأة مسلمة سوق الصاغة في المدينة الذي كان تحت سيطرتهم، فجلست عند صائغ منهم لأجل حليٍ لها، فاجتمع عليها جماعة من اليهود وأرادوها أن تكشف عن وجهها فأبت، فعمد يهودي من خلفها من حيث لا تعلم فعقد طرف ثوبها الى ظهرها، فلمّا قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها،

فصاحت تستغيث بالمسلمين، فوثب رجلٌ من المسلمين على من فعل ذلك فقتله، وشدّ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستنجد أهل المسلم بالمسلمين ووقع بينهم وبين قينقاع الشر، فجمعهم النبي ﷺ في سوقهم وحذّرهم وطلب منهم أن يكفوا عن أذى المسلمين ويلتزموا بعهد الموادعة، أو يُنزل بهم ما أنزله بقريش، فقال لهم: «يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم» فاستخفوا بوعيده وأجابوه: «لا يغرنّك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة مكنتك من رقابهم، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس، وسترى منا ما لم تره من غيرنا».

فأنزل الله على نبيه ﷺ بهذه المناسبة قوله تعالى: ﴿**قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**وإمّا تخافنَّ من قومٍ خيانةً فانبذْ إليهمْ على سواءٍ إنَّ الله لا يحبُّ الخائنينَ**﴾[2].

ولذلك لم يبقَ أمام النبي ﷺ إلاّ أن يقاتلهم، فسار إليهم، وكان عددهم حوالى سبعمائة مقاتل، وسلم الراية لعلي عليه السلام، وحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشد حصار، فقذف الله في قلوبهم الرعب، واستسلموا، وطلبوا من النبي ﷺ أن يخلى سبيلهم وينفيهم من المدينة، على أن يكون لهم نساؤهم والذرية، وله أموالهم والسلاح، فقبل منهم ذلك، وأخذ أموالهم وأسلحتهم ووزعها بين المسلمين، وطردهم من المدينة الى أذرعات بالشام، ويقال: إنه لم تدر عليهم السنة حتى هلكوا جميعاً.

ب. غزوة بني النضير:

وجاء دور بني النضير بعد قينقاع، فقد ظهر للنبي ﷺ ولكل أحد أنهم يكيدون له سراً ويدبرون أمراً للغدر به واغتياله ﷺ، وقد شرعوا في تنفيذ ذلك وساروا في هذا السبيل خطوات، فقرر إجلائهم عن مواضعهم بعد أن ظهر للعيان فسادهم، وقد تعامل النبي ﷺ معهم كما تعامل قبلهم مع بني قينقاع بمزيد من الرفق والتسامح، حيث أنذرهم في

---

(١) آل عمران. ١٢. ١٣.

(٢) الأنفال. ٥٨.

البداية بأن يخرجوا من حصونهم وينزحوا من يثرب في مدة عشرة أيام، ولكنهم رفضوا الاذعان لهذا الانذار أول الأمر، ثم بدا أنهم أذعنوا لحكم الرسول ﷺ ورضوا بالجلاء عن يثرب لكن جماعة من المنافقين من بني عوف وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بعثوا إليهم: «أن اثبتوا وتمنّعوا فإنّا لا نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم»[1].

إلاّ أن عبد الله بن أبي خذلهم وغدر بهم، وأنزل الله سبحانه بهذه المناسبة: ﴿**أَلم تَرَ إلى الذِّينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوانهمْ الذِّينَ كَفَرُوا منْ أهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصرنَّكُمْ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نصروهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصرونَ**﴾[2].

لذلك امتنعوا عن الاذعان لحكم النبي ﷺ وأحتموا خلف حصونهم وفي ذلك يقول القرآن: ﴿**لا يُقَاتلونكُمْ جَمِيعاً إلاّ في قُرىً مُحصَّنةٍ أوْ من وَرَاءِ جدر...**﴾[3] وكانت حصونهم محكمة، وكان من غير الممكن فتحها في مدة وجيزة، فأمر الرسول ﷺ بقطع نخيلهم وحرقها، ولعل النخيل الذي أُحرق كان ذلك الذي يعيق حركة القتال.. فناداه اليهود: «يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها» فنزل الوحي الالهي مخاطباً المسلمين ﴿**مَا قطعتُم من لينةٍ أو تركْتُمُوها قائمةً على أصُولِهَا فبإذنِ اللهِ وليخزيَ الفاسقينَ**﴾[4].

فالسر في قطع النخيل هو أن النبي والمسلمين أرادوا كسر عنجهية بني النضير وإفهامهم مدى التصميم على المواجهة والتحدي حتى يفقدوا الأمل بجدوى المقاومة، وليفهموا ـ بصورة عملية ـ أنهم إذا كانوا يطمعون بالبقاء في أرضهم فإن عليهم أن يقبلوا بها أرضاً محروقة، جرداء، ليس فيها أي أثر للحياة، ولا تستطيع أن توفر لهم حتى لقمة العيش التي لا بدّ منها.

وهذا هو ما يفسر لنا قوله تعالى في تعليل الاذن الالهي بقطع النخل (وليخزي الفاسقين) فقد كان قطع النخل ضرورياً ولازماً من أجل قطع آمال بني النضير، وكل

(١) أنظر السيرة النبوية لإبن هشام: ج٣، ص٢٠٠. (٣) الحشر ـ ١٤.
(٢) الحشر ـ ١١ ـ ١٢. (٤) الحشر ـ ٥.

آمال غيرهم أيضاً، وخزيهم وخزي سائر حلفائهم وفي مقدمهم عبد الله بن أبي ومن معهم من المنافقين، ثم كل من يرقب الساحة ويطمع في أن يستفيد من تحولاتها في تحقيق مآربه ضد الاسلام والمسلمين.

ويظهر أن قطع النخيل واحراقه، كان سبباً في تسرب اليأس الى قلوبهم، إذ وجدوا أنفسهم أمام خيارين: إما الإذعان لحكم النبي ﷺ، وإما الخروج من المدينة لمهاجمة المسلمين ومنعهم من حرق نخيلهم، فاختاروا الإذعان لحكم النبي ﷺ، خاصة بعد أن تمكن علي بن أبي طالب عليه السلام من قتل عشرة من فرسانهم، فطلبوا منه ﷺ أن يجليهم ويكف عنهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاّ السلاح، فرضي النبي بذلك، فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، وكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعير وينطلق به، فخرجوا الى خيبر، ومنهم من سار الى الشام.

ويشير القرآن الى غرور بني النضير وامتناعهم بحصونهم ظانين أنها ستمنعهم من أمر الله كما يشير الى هزيمتهم وتخريبهم بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين المجاهدين بقوله تعالى: ﴿**هُوَ الذي أخْرَجَ الذينَ كَفَرُوا منْ أهلِ الكِتَابِ من ديَارِهِمْ لأوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونَهُمْ منَ اللهِ فَأتَاهُمُ اللهُ منْ حَيثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبِهِمُ الرُّعبَ يُخْرِبُونَ بيُوتَهُمْ بأيديهِمْ وأيْدي المؤمنينَ فاعتَبِرُوا يا أُولي الأبْصارِ**﴾[1].

(١) الحشر ـ ٢.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الإجتماعي / ٥

مدرسة الحلم والعفو

من أبرز ما اتصفت به الأخلاق النبوية هو الحلم عن اخطاء الآخرين والعفو عن سيئاتهم.

ومن المعلوم ان الحلم هو عبارة عن ضبط النفس والضغط على المشاعر والانفعالات النفسية إزاء اخطاء الآخرين وممارساتهم السلبية لئلا تتفجر غضباً وحقداً وغيظاً ينعكس سلباً على السلوك والممارسة.

وقد كان رسول الله ﷺ في فضيلة الحلم عن المسي نموذجاً رائعاً كسائر اخلاقه. فهو لا يعرف الغضب إلا حين تنتهك للحق حرمته. اما سوى ذلك فانه كان أبعد الناس عن الغضب والانفعال. فهو أحلم انسان عمن أساء إليه بكلمة أو تصرف خاطىء أو سلوك مشين.

* قال أنس بن مالك: خدمت رسول الله ﷺ سنين. فما سبَّني سبَّة قط. ولا ضربني ضربة. ولا انتهرني. ولا عبس في وجهي. ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه. فان عاتبني عليه أحد من أهله قال: دعوه. فلو قدر شيء كان.

* وروي: أن النبي ﷺ ما ضرب امرأة قط. ولا ضرب خادماً قط. ولا ضرب بيده شيئاً قط. إلا أن يجاهد في سبيل الله عز وجل. ولا نِيل منه فانتقم من صاحبه إلا أن تنتهك محارمه فينتقم.

* وعن أنس أيضاً قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه اعرابي فأخذ برداءه فجبذه (جذبه) جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت به حاشية الرّداء من شدة جبذته. ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك.

فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك وأمر له بعطاء.

* وكان رسول الله ﷺ يقول: أوصاني ربي بسبع: أوصاني بالاخلاص في السر والعلانية. وأن أعفو عمن ظلمني. وأعطي من حرمني. وأصل من قطعني. وأن يكون صمتي فكراً. ونظري عبراً.

وكما كان في صفة الحلم فقد كان في صفة العفو أيضاً.

* ومن عظيم عفوه ما تجلى يوم فتح مكة، فالبرغم من القسوة والوحشية اللتين عومل بهما جسد عمه حمزة بن عبد المطلب في معركة أُحُد، لم يلجأ إلى الانتقام من وحشي قاتل حمزة، ولا من هند زوجة أبي سفيان التي مثلت في جسده، مع أنهما كانا في قبضته وكان يستطيع معاقبتهما والنيل منهما.

* كما أنه ﷺ عفى عن أهل مكة يوم الفتح ووقف منهم موقفاً رحيماً بالرغم من كل العذاب والمعاناة والآلام وأنواع الأذى الذي صبته قريش عليه على المسلمين قبل الهجرة وبعدها، وبالرغم من مؤامراتها وحروبها وأرهابها فإنه ﷺ وقف على باب الكعبة بعد الفتح مخاطباً أهل مكة: ما ترون أني فاعل بكم؟

قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وعندما قال أحد أصحابه: اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة.

قال ﷺ: اليوم يوم المرحمة اليوم تراعى الحرمة.

بهذه النفس الرحيمة، وبهذا الخلق الرفيع والسلوك الحضاري الذي لم يعرف التاريخ له نظيراً يعامل رسول الله ﷺ أشد الناس عداوة له، بعد أن تمكن منهم ومن رقابهم، انه الخلق النبوي المحمدي الأصيل.

١٧

الصراع مع اليهود ـ ٣

ج ـ غزوة بني قريظة:

لقد كان بين يهود بني قريظة وبين رسول الله ﷺ عهد واتفاق على أن لا يحاربهم ولا يحاربوه، ولا يعينوا عليه أحداً، غير أنهم نقضوا العهد وتعاونوا مع قريش والمنافقين في معركة الأحزاب ضد رسول الله ﷺ ودعوته.

فلما سمع النبي ﷺ بخيانتهم، أرسل إليهم سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة، لتذكيرهم بالعهد والميثاق، فأساؤا الردّ، وأصرّوا على نقض العهد، فسكت عنهم رسول الله ﷺ حتى هزمت قريش والأحزاب، وكسب المسلمون معركة الخندق.

وفي نفس اليوم الذي رجع فيه النبي ﷺ من ساحات المواجهة في الخندق قرر الهجوم عليهم حتى انه ﷺ أمر من كان معه من المسلمين ألا يصلّوا العصر إلاّ في بني قريظة، لكسب الوقت، واستثمار الموقف النفسي المنهار لدى اليهود وحلفائهم من المشركين والمنافقين، ولكي لا يعطيهم الفرصة لإعادة ترتيب أوضاعهم وإنشاء علاقات تزيد في قوتهم.. فأعطى رايته لعلي عليه السلام وتبعه المسلمون بالرغم مما كانوا عليه من التعب والسهر خلال حصار الأحزاب لهم.

طوَّق المسلمون اليهود في حصونهم وأخذوا يرمونهم بالحجارة والسهام، ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من حصونهم طوال مدة الحصار لأن المسلمين أحاطوا بهم من جميع الجهات، واستمر الحصار أياماً قيل: عشرة أيام. وقيل: أكثر من ذلك.

وخلال الحصار أرسل ﷺ إليهم بعض أصحابه لمواجهتهم فرجعوا منهزمين، فبعث علياً عليه السلام فكان الفتح على يديه، واستسلموا، وطلبوا من النبي ﷺ أن يعاملهم كما عامل بني النضير من قبل، فأبى عليهم رسول الله ﷺ ذلك، وعرض عليهم أن يختاروا من الأوس - وهم حلفاؤهم - من شاؤا ليحكم فيهم.

فاختاروا سعد بن معاذ، ونسوا موقفهم مع سعد حينما نقضوا العهد وانضموا الى الأحزاب ولم يستجيبوا إليه عندما حذّرهم من ذلك.

فحكم سعد فيهم بقتل الرجال أي المقاتلين منهم فقط ممن نقض العهد وقاتل.. وسبي النساء والذراري ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، ولا شك في أن النبي ﷺ كان يرى فيهم هذا الرأي، لأنه إذا عفا عنهم اليوم فسيمثلون معه نفس الدور الذي مثلوه بالأمس حينما انضموا لأعدائه وتآمروا سراً معهم، فهو ﷺ لم يأمن الغدر والتآمر اليهودي ضده مرة أخرى، بل ربما يشتد خطرهم لو تركهم ويستعصي على المسلمين بعد ذلك استئصالهم.

لذلك أمر رسول الله ﷺ بتنفيذ حكم سعد في حق من قاتل منهم وخرج الى سوق بالمدينة فحفر بها الخنادق وقتل من قاتله منهم من الرجال، وأسر النساء والاولاد، وقد اختلف المؤرخون في عدد القتلى والأسرى منهم، لكن الأقوال في ذلك تتراوح في عدد القتلى ما بين الثلاثمائة رجل والألف، بينما بلغ عدد الأسرى ما بين السبعمائة وخمسين والألف. وبذلك تخلص المسلمون من أشد أعداء الدولة الداخليين حيث قضت هذه الغزوة القضاء التام على جماعات اليهود في المدينة الذين كانوا يهددون أمنها واستقرارها بالتآمر والتجسس والاشاعات والتخريب.

وقد أشار القرآن الكريم الى انسحاب جيوش الأحزاب وغزوة بني قريظة وانتصار المسلمين فيها بقوله تعالى: ﴿**وَرَدَّ اللهُ الذينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَم يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ المُؤمنينَ القِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزيزاً. وأَنْزَلَ الذينَ ظاهرُوهُمْ منْ أهلِ الكِتابِ من صياصِيهِمْ وقَذَفَ في قُلوبِهِمُ الرُّعبَ فَريقاً تَقْتُلونَ وتَأسِرُونَ فَريقاً. وأَوْرَثَكُمْ أرضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ وأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكَانَ الله على كلِّ شيءٍ قَديراً**﴾[1].

(١) الأحزاب، ٢٥ ـ ٢٧.

د ـ معركة خيبر:

كان يهود خيبر من أقوى الطوائف اليهودية في بلاد الحجاز وأكثرهم عدداً وعدة وأمنعهم حصوناً، فخيبر قرية من قرى اليهود المجاورة للمدينة، تقع على قمة جبل، ويحيطها حصن حجري ظن أهله أنه مانعهم من إرادة الحق، وسيوف المجاهدين المؤيدين بنصر الله سبحانه، ويهود خيبر على عادة اليهود، قد استحكم بهم الغرور، وغرّهم المال والسلاح الذي بأيديهم.

وفي حصون خيبر عشرة آلاف مقاتل، كانوا يخرجون كل يوم صفوفاً يستعرضون قوتهم، ويسخرون بقوة المسلمين وهم يرددون «محمد يغزونا، هيهات! هيهات!».

وهذا الاعتداد بالقوة لم يكن ليخدع يهود خيبر وحدهم، بل كان يهود المدينة الذين يعيشون وسط المسلمين قد انخدعوا به أيضاً، فراحوا يهددون المسلمين بتلك القوة، ويحاولون إظهار التفوق العسكري لخيبر على المسلمين، لإشاعة الحرب النفسية، وإضعاف الروح المعنوية للمسلمين.

وكانوا يرددون على مسامع المسلمين: «ما أمنع والله خيبر منكم، لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها، لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم، حصون شامخات في ذُرى الجبال، إن بخيبر لألف دارع، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلاّ بهم، فأنتم تطيقون خيبر؟»[1].

أما الإعلام الاسلامي في المدينة فكان يرد منطلقاً من الثقة بالله، والإصرار على الجهاد والمقاومة: إن خيبر «قد وعدها الله نبيه أن يُغنمه إيّاها»[2]. ولا خلف لوعد الله بالنصر.

وفي ظل هذه الأجواء راح الرسول ﷺ يصبر ويصبر على كل أذى خيبر بسبب ما كانت تمارسه ضد الإسلام والمسلمين، فمنها: انطلق زعماء اليهود لدعوة القبائل العربية وتحزيبها ضد المسلمين في غزوة الخندق، وقد بذلوا الأموال في ذلك، ومنها: خرج حيي بن أخطب ودفع بني قريظة إلى نقض العهد في اللحظات العصيبة، وقد غدت خيبر بمرور الأيام ملجأً يأوي إليه اليهود المبعدون عن المدينة، ينتظرون الفرصة

(١) أنظر: الواقدي، المغازي: ج٢، ص٦٣٧.
(٢) ن. م.

للإنتقام من الإسلام، واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردهم النبي ﷺ منها، وقد اتضح هذا في الأيام القليلة التي أعقبت هزيمة بني قريظة، إذ بلغت خيبر أنباء هزيمة بني قريظة فاتصل بعض اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسألوه الرأي فأجابهم: نسير إلى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد، ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب، قد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب.. ثم نسير إليه في عقر داره، فقالت اليهود: هذا الرأي[1]. وها هم يحرضون غطفان وغيرها ويعدونهم أن يمنحوهم ثمر خيبر لسنة إن هم تحالفوا معهم ضد الإسلام والمسلمين.

لهذه الأسباب وغيرها عقد الرسول ﷺ العزم على غزوهم في حصونهم ومعاقلهم المنيعة في خيبر، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة. فجمع ﷺ جيشه وتكتم على مسيره، وخرج من المدينة في ألف وستمائة مقاتل من المسلمين، وأعطى رايته لعلي عليه السلام، وسلك طرقاً تحفظ سرية تحركه، فلم يشعر اليهود إلاّ وجيش المسلمين قد نزل بساحتهم ليلاً، وكان الرسول ﷺ قد وعده الله بالنصر وأن يرده الى المدينة فاتحاً غانماً.

وحين فوجئوا بقوات المسلمين، تشاوروا فيما بينهم واتفقوا على القتال فأدخلوا نساءهم وأولادهم وأموالهم في بعض الحصون، وأدخلوا ذخائرهم في حصون أُخرى، بينما دخل المقاتلون منهم في حصن عُرف (بحصن النطاة أو حصن القموص) والتقى الجمعان حول هذا الحصن، ودار قتال شديد بينهما حتى جرح عدد كبير من المسلمين.

وكان الهجوم على الحصن قد بدأ بإرسال النبي ﷺ سرية من المسلمين بقيادة أبي بكر، غير أنه لم يستطع أن يفتح ثغرة في تحصينات العدو، بل عاد الى رسول الله ﷺ منهزماً، ثم أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب لمعاودة الكرة، فرجع منهزماً يجبّن أصحابه ويجبّنونه، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: «**لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، كراراً غير فرار**»[2]، فدعا رسول الله ﷺ علياً، وهو أرمد، فتفل في عينيه، ثم قال: «**خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك**».

---

(١) ن. م: ج٢، ص٥٣٠ ـ ٥٣١.

(٢) أنظر، تاريخ الطبري: ج٢، ص٣٠٠.

فخرج علي عليه السلام ومعه المقاتلون المسلمون فدار قتال بينهم وبين اليهود على أبواب الحصن، وقتل علي عليه السلام مرحباً وهو من أبطال اليهود وصناديدهم بعدما كان قد قتل أخاه الحارث وأكثر من ستة من فرسان اليهود على باب الحصن، فاستولى الخوف على اليهود والتجأوا الى الحصن وأغلقوا بابه، وكان من أمنع الحصون وأشدها وقد حفروا حوله خندقاً يتعذّر على المسلمين اجتيازه، فاقتلع علي عليه السلام باب الحصن، وجعله جسراً فعبر عليه المسلمون، واستبسلوا بقيادة علي عليه السلام فهاجموا بقية الحصون وتغلبوا على من فيها حتى انتهوا الى حصن الوطيح والسلالم وكانا آخر حصونهم المنيعة وفيهما النساء والذراري والأموال.

ولما شعر اليهود بأنه أسقط ما في أيديهم، وأن المسلمين سيأسرونهم ويقتلونهم إن هم أصرّوا على موقفهم، استسلموا وطلبوا العفو من النبي ﷺ فأجابهم النبي ﷺ الى ذلك بعد أن استولى على أموالهم، وتمّ الاتفاق بينهم وبين النبي ﷺ على أن تبقى الأرض في أيديهم يعملون فيها بنصف الناتج والنصف الآخر للمسلمين.

وبعد فتح خيبر رجع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فقال رسول اللّه ﷺ: ما أدري أنا بأيهما أشدّ فرحاً برجوع جعفر أم بفتح اللّه على يد أخيه علي خيبر.

إن انتصار المسلمين الساحق في خيبر يعود إلى العوامل التالية:

١ ـ التخطيط العسكري والتكتيك الحربي الدقيق.

٢ ـ تحصيل المعلومات الدقيقة عن تمركز العدو داخل الحصون.

٣ ـ تفاني الامام علي بن أبي طالب عليه السلام، وشجاعته وبطولته النادرة والتسديد الإلهي الذي مكنه من قتل أبطال اليهود وفرسانهم، وقلع باب خيبر وفتح الحصن على يديه[1].

هـ ـ يهود فدك:

لما سمع يهود فدك ـ القرية اليهودية المجاورة لخيبر ـ بما حلَّ برفاقهم في خيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ يعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة أراضيهم، فوافق ﷺ على ذلك وصالحهم على نصف ناتج الأرض، فكانت خيبر ملكاً للمسلمين لأنه استولى عليها بالحرب، وفدك للنبي ﷺ خاصة لأنه تملكها بالصلح، وقد وهبها النبي ﷺ لفاطمة

(١) راجع عوامل الانتصار في كتاب سيد المرسلين: ج٢، ص٤٠٥ ـ ٤٠٨.

الزهراء عليها السلام في حياته، وسلمها إياها وجعلت عمالها فيها وصارت هي المشرفة على أعمالها وعلى ناتجها. وكانت تصرف ناتجها على فقراء بني هاشم وحسبما تشاء.

فقد جاء في الدر المنثور للسيوطي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: لما نزلت الآية (وآت ذا القربى حقه) دعا رسول الله ﷺ فاطمة عليها السلام وأعطاها فدكاً، كما روى ذلك جماعة عن ابن عباس[١].

وجاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن أبي سعيد الخدري: أنه ﷺ وهبها لفاطمة عليها السلام، ولما انتهت الخلافة لأبي بكر كان أول ما قام به أن انتزعها من يدها بحجة أن النبي ﷺ على حد زعمه قال: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، وأصرّ على انتزاعها من يدها بالرغم من أنها طالبت بها وأقامت البيّنة على ملكيتها لها.

و ـ يهود وادي القرى وتيماء:

أما وادي القرى التي كان أهلها من اليهود الحربيين الذين تآمروا على الإسلام والمسلمين فقد توجه إليها النبي ﷺ وفرض الحصار عليها، ودعا أهلها إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، ولكنهم أبو وأصروا على القتال، وجرت بين الطرفين مناوشات محدودة، والنبي يعرض عليهم الإسلام وهم يأبون مما دفعه إلى تشديد الحصار عليهم حيث تمكن من فتح بلدهم عنوة، وبقي هناك أربعة أيام قسم خلالها الغنائم على أصحابه، وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها.

ولما بلغت يهود تيماء أنباء الانتصارات الإسلامية صالحوا الرسول ﷺ على الجزية وأقاموا في بلدهم[٢].

وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة تم تصفية آخر تجمع يهودي لعب دوره في مواجهة الإسلام ووضع العوائق في طريقه، وحبك المؤامرات ضده، وقضي قضاءً تاماً على القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية ليهود الحجاز، وغدت كلمة الإسلام وحدها هي العليا في معظم مساحات الجزيرة العربية.

---

(١) أنظر، فضائل الخمسة: ج٣، ص١٣٦.

(٢) أنظر، المغازي للواقدي: ج٢، ص٧٠٩ ـ ٧١١. والفتوح للبلاذري: ج١، ص٣٩ ـ ٤٠، والتنبيه والاشراف للمسعودي: ص٢٢٤ ـ ٢٢٥

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه الإجتماعي / ٦

مدرسة الوفاء

من الخصال الإنسانية والأخلاقية في شخصية رسول الله ﷺ هي خصلة الوفاء. الوفاء بالوعد، والوفاء بمعناه الانساني والاخلاقي الواسع الذي يقود إلى صنع الجميل تجاه من أحسن أو أسدَ خدمة أو معروفاً.

* فقد كان رسول الله ﷺ شديد التقيد بالوعود التي يعطيها للآخرين مهما كانت صعبة.

فعن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: إن رسول اللّه ﷺ وعد رجلاً إلى صخرة فقال: أنا هاهنا حتى تأتي. فاشتدت الشمس عليه فقال له أصحابه: يا رسول الله لو أنك تحولت إلى الظّل؟ فقال ﷺ: **"وعدته إلى هنا وإن لم يجىء كان منه المحشر"**[١].

وعن أبي الحميساء قال: بايعت النبي ﷺ (أي بعته شيئاً) قبل أن يبعث فواعدته مكاناً فنسيته يومي والغد. فأتيته يوم الثالث. فقال ﷺ: **"يا فتى لقد شققت عليَّ. أنا هنا منذ ثلاثة أيام"**[٢].

* وكان ﷺ وفيّاً تجاه كل من أحسن وعمل معروفاً أو وقف موقفاً إيجابياً تجاه الإسلام والمسلمين.

فقد كان يتحين الفرص ليسدي إلى النجاشي ملك الحبشة بعض احسانه. ويكافئه على صنيعه وموقفه تجاه المسلمين الذين هاجروا إلى بلاده فأكرمهم ورحب بهم.

فقد روي أن وفداً اتى من عند النجاشي إلى النبي ﷺ. فقام النبي ﷺ بخدمهم فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله. فقال ﷺ: **"انهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم"**[٣].

وروي أنه لما أتى جبرائيل إلى رسول الله ﷺ بنعي النجاشي وموته بكى عليه وقال: إن أخاكم أصحمة (وهو اسم النجاشي) مات. ثم خرج إلى الجبانة وكبر سبعاً فخفض إليه كل مرتفع حتى رأى جنازته وهو بالحبشة[٤].

---

(١) البحار: ج١٦، ص٢٣٩.
(٢) ن. م: ج١٦، ص٢٣٥.
(٣) سفينة البحار: ج١، ص٤١٧.
(٤) البحار: ج١٨، ص٤١٨.

* وكان ﷺ وفيّاً لزوجته خديجة لإحسانها فكان يذكرها باستمرار، بل كان ﷺ اذا سمع باسمها لم يتمالك نفسه من البكاء، وكان يردد: "**خديجة!.. وأين مثل خديجة؟! صدقتني حين كذبني الناس وآزرتني على دين الله، وأعانتني بمالها**"[1].

* وعن الإمام الصادق عليه السلام: "**إن النبي ﷺ حين جاءته وفاة جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة كان إذا دخل بيته كثر بكاؤه عليهما ويقول: كان يحدثاني ويؤنساني فذهبا جميعاً**"[2].

(١) سفينة البحار: ج١، ص٣٨٠.
(٢) البحار: ج٢١، ص٥٥.

١٨

المواجهة بين الإسلام والجبهة البيزنطية ـ النصرانية

لقد وقف النصارى بالإجمال من الدعوة الإسلامية منذ البدء موقف العطف والتأييد أحياناً. وظلوا كذلك إلى آخر العهد المكي ولم يقع بينهم وبين النبي ﷺ احتكاك وعداء كما وقع مع اليهود في المدينة.

لكن هذا لم يمنع الكثرة من النصارى العرب ان تلعب دورها في العصر المدني بمواجهة الإسلام وتتخذ المواقف العدائية ضده على شتى المستويات بدفع من الدولة البيزنطية الرومانية.

ففي العصر المدني تمكن الإسلام من بناء دولته التي تتجاوز في سياساتها وعلاقاتها الحدود الاقليمية والقومية صوب العالم المحيط حيث تقبع الدولة البيزنطية وحلفاؤها العرب في الشمال وهم جميعاً محسوبون على المعسكر النصراني.

وبمرور الوقت واتساع نفوذ الإسلام شمالاً، ووصول أنباء انتصارته على الوثنية واليهودية إلى قبائل الشمال.. بدأ المعسكر البيزنطي وحلفاؤه يشعر بالخوف والخطر ويقوم ببعض التصرفات المعادية للإسلام والمسلمين، فبدأ مسلسل الصراع المسلح بين المسلمين والنصارى، وكانت أبرز المعارك على هذا الصعيد:

- معركة مؤتة.
- معركة تبوك.

معركة مؤتة:

كان الدافع لهذه المعركة هو الانتقام لحادثة مقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث الرسول ﷺ إلى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغساني ـ عامل هرقل ـ في مؤتة، فقد كان لهذه الحادثة وقع شديد على المسلمين وكان لابد للنبي ﷺ أن يتخذ موقفاً حاسماً ازاء المعتدي بعد هذا الموقف الغادر.

فجهز النبي ﷺ جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة جعفر بن أبي طالب (ره)، وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة وأمرهم بالانطلاق صوب الشمال، لتأديب القوى المعادية على فعلتها، وإشعارها بقوة الدولة الإسلامية وقدرتها على ردع الغادرين والمعتدين الذين يجدون في الحماية البيزنطية سبباً يدفعهم إلى الجرأة والعدوان.

وتشير الشواهد الصحيحة إلى أنه ﷺ جعل القيادة لجعفر بن أبي طالب، ومن بعده لزيد بن حارثة، ومن بعدهما لعبد الله بن رواحة، وترك للجيش أن يختار لقيادته من يراه صالحاً إذا أصيب الثلاثة.

أعدَّ هرقل بعدما سمع نبأ التحرك الإسلامي جيشاً كثيفاً قوامه مئة ألف مقاتل وعسكر في مآب من أرض البلقاء.

ولما وصل المسلمون إلى منطقة معان جنوبي الأردن بلغتهم أخبار تلك الحشود.. فأقاموا ليلتين يتداولون الرأي بينهم وقال بعضهم: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فاما أن يمدنا بالرجال واما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، وكاد هذا الرأي أن يتغلب لولا التربية الايمانية والمعنوية التي كان لها دورها في صنع القرار وتحديد الموقف في اللحظات الحرجة حيث وقف عبد الله بن رواحة وقال بكل إيمان وقوة وشجاعة: «يا قوم، والله.. ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فانما هي إحدى الحسنيين: اما ظهور واما شهادة».

فكان لهذه الكلمات أثرها الطيب على تلك النفوس المؤمنة المجاهدة، فصمموا على المضي والقتال مهما كانت النتائج.

غادر المسلمون معسكرهم في معان وانطلقوا شمالاً حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء

لقيتهم جموع الروم وحلفاؤهم العرب في قرية تدعى مؤتة، وهناك دارت معركة طاحنة بين الطرفين. استشهد خلالها القادة الثلاثة على التوالي، فقرر خالد بن الوليد الذي تولى قيادة الجيش الانسحاب والعودة إلى المدينة.

غزوة تبوك:

بعد عودة الرسول الأعظم ﷺ إلى المدينة المنورة في أواخر السنة الثامنة في أعقاب دخول مكة وانتصاره في حنين، بلغته أنباء خطيرة عن تحركات عسكرية خطيرة يعتزم الروم وحلفاؤهم العرب من لخم وجذام وغسان، القيام بها ضد الإسلام والمسلمين، وقد قامت هذه القبائل فعلاً بإرسال طلائعها إلى البلقاء، فقرر النبي ﷺ أن يتصدى لهم.

وفي معظم الغزوات كان النبي ﷺ لا يحدد هدفه العسكري زيادة في الكتمان والسرية بل انه كان يعلن عن أهداف غير تلك التي يقصدها لتضليل الأعداء، أما في غزوة تبوك فقد بيَّن النبي ﷺ الهدف للناس «**لبعد الشقة وكثرة العدو، ليتأهب الناس لذلك أهبته**».

فأرسل إلى القبائل المسلمة في مختلف المناطق يعلمهم بما عزم عليه ويستنهضهم للجهاد معه، فأجابوا دعوته إلا المنافقين، فإنهم راحوا يختلقون الأعذار الواهية حتى لا يخرجوا لقتال الروم، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فقال تعالى: ﴿**وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشدُّ حراً لو كانوا يفقهون**﴾[1].

ثم تمادى المنافقون في موقفهم، فلم يكتفوا بتخلفهم عن الجهاد بل راحوا يثبطون الناس عنه ويحرضون على التخلف والتخاذل، وقد اجتمعوا لهذه الغاية في بيت أحد اليهود، فعلم النبي ﷺ بهم، فحرق عليهم الدار وكانوا عبرةً لغيرهم.

استكمل النبي ﷺ تجهيز المسلمين وولى علياً عليه السلام إدارة المدينة وقال له: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**» ثم ما لبث ان انطلق ﷺ في رجب من السنة التاسعة بأكبر جيش عرفه تاريخ الدعوة إلى ذلك الحين، قيل إنه بلغ ثلاثين ألفاً، تصحبه عشرة آلاف فرس.

---

(١) التوبة . ٨١.

بدأ المسلمون مسيرتهم التي قطعوا فيها آلاف الأميال، وعانوا آلام العطش والجوع والحرّ وقلة وسائل الركوب وبُعد الطريق.. حتى انتهى بهم المطاف إلى تبوك في أقصى الشمال، ويبدو أن الروم وحلفاءهم سمعوا أنباء هذا الجيش الكبير، وقدرته على اجتياز المصاعب، وإصراره على جهاد الأعداء، وقدّروا انه لو انتصر في هذه المعركة فسوف لا يقف عند حد، وبالتالي قد تتعرض مواقعهم للخطر، فآثروا الانسحاب إلى الداخل، عبر أراضي الأردن وفلسطين، وربما كانوا يهدفون من ذلك ـ في الوقت نفسه ـ جرَّ المسلمين إلى الداخل والانقضاض عليهم هناك. إلا أن النبي ﷺ لم يتح لهم تحقيق هدفهم هذا وقرر عدم التوغل إلى الداخل، وعسكر في تبوك جاعلاً أياها آخر نقطة في توغله شمالاً.

بقي النبي ﷺ في تبوك حوالى عشرين يوماً يراقب تحركات الروم من دون أن يقاتل أحداً، وأخذ يتصل في الوقت نفسه بزعماء القبائل النصرانية المنتشرة في المنطقة المتاخمة للحدود، وعقد مع بعضهم معاهدات صلح وتعاون، فقطع بذلك ولاءهم للدولة البيزنطية وحولهم إلى مواطنين أو حلفاء للدولة الإسلامية، وهو الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه منذ بدء صراعه مع الروم.

نتائج تبوك وملامح الانتصار:

وبعد عشرين ليلة قضاها النبي ﷺ وقواته في تبوك، قفل عائداً إلى المدينة بعد أن حقق بحركته الصعبة تلك انتصاراً على الجبهة النصرانية البيزنطية، لا يقل أهمية عن انتصاراته الحاسمة على جبهات الوثنية واليهودية، وهذه أبرز ملامح الانتصار:

١ ـ فقد كسب النبي ﷺ عدداً من القبائل القاطنة في جنوب الشام على الحدود إلى جانب الدولة الإسلامية، وقطع علاقاتها بالروم، وحصل منها على عهد بأن لا تتعاون مع أحد عليه ولا تتخذ من بلدانها مركزاً للعدوان على الحجاز، وبذلك ضمن النبي ﷺ أمن المسلمين وحدود دولتهم.

٢ ـ والانتصار الأهم هو أن استجابة الرسول ﷺ لتحدي الروم، وتقدمه لقتالهم وانسحابهم من طريقه وانتظاره إياهم قرابة عشرين يوماً دون أن يحركوا ساكناً، جاء ضربة قاسية للسيادة البيزنطية في بلاد الشام، وإضعافاً لمركزها وهيمنتها على القبائل

التي تعيش هناك، وكسراً لجدار الخوف من القوة البيزنطية، وهو إنتصار نفسي حاسم مكّن أهالي البلاد، بعد سنين قليلة، من تجاوز ولائهم القديم والإنطلاق لضرب البيزنطيين وإلحاق الهزائم بهم وطردهم إلى بلادهم التي جاؤوا منها.

٣ ـ صعود سمعة المسلمين ومكانتهم وهيبتهم داخل الحجاز وخارجها بحيث ان القبائل كانت تتأرجح بين تأييد الروم التي شعرت بمدى قوة الدولة الجديدة وامتداد نفوذها حتى إلى قلب الديار التي كان أهلها يعملون لصالح الروم، فبادرت هذه القبائل إلى حسم خيارها وأخذت تتهافت على الرسول في المدينة بعد رجوعه من تبوك خاضعة مذعنة معلنة إسلامها وتأييدها، حتى سمي ذلك العام (التاسع) بعام الوفود.

٤ ـ ان غزوة تبوك تمثل خطوة من خطوات حركة المسلمين باتجاه الخارج، وتخطياً لنطاق العرب وجزيرتهم إلى العالم، وبادرة متقدمة مهدت الطريق لحركة الفتوحات الإسلامية التي شهدتها العصور التالية لعصر النبي ﷺ.

وفي غزوة تبوك أكثر من موقف ودرس وعبرة نذكر هنا أبرزها:

١ ـ ميزت غزوة تبوك مرة أخرى المنتمين إلى معسكر الإسلام، فكشفت المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد لأعذار واهية ومحصتهم عن المؤمنين المجاهدين الذين سارعوا للإنخراط في الجيش الإسلامي رغبة في الجهاد وعشقاً للشهادة.

وقد ذكر المفسرون أن عدداً من آيات سورة التوبة[1] نزلت بمناسبة تبوك، مقَارنَةً بين موقف المنافقين وموقف المؤمنين من الجهاد، وفاضحةً المنافقين وأساليبهم، مُحذِّرةً من مكرهم ومؤامراتهم، مشددةً على عدم التساهل معهم أو الاستعانة بهم أو قبول أعذارهم.

٢ ـ في الوقت الذي تخلف فيه البعض عن الجهاد في تبوك ملتمسين الأعذار الواهية، كان البعض من الفقراء المجاهدين تفيض أعينهم من الدمع لأنهم لم يتمكنوا من الخروج إلى الجهاد بسبب عدم امتلاكهم لمؤنته وامكاناته.

وقد ورد أن سبعة من فقراء المسلمين جاؤوا إلى النبي ﷺ وتوسلوا إليه أن يهيء لهم ما يُمكّنهم من الخروج معه شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله. فأجابهم: لا أجد ما

(١) راجع سورة التوبة الآيات: ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٤، ٩٥، ٩٦.

أحملكم عليه، فتولوا عنه وأعينهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً لحرمانهم من شرف المشاركة، وأنزل الله بهذه المناسبة قوله تعالى: ﴿**ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه تولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألا يجدوا ما ينفقون**﴾[١].

٣ ـ شارك المسلمون الأغنياء في تجهيز الجيش الإسلامي والإنفاق عليه حتى «أن الرجل كان يأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول: هذا البعير بينكما تتعاقبانه، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج»، بل ورد أيضاً أن النساء ساهمنَّ بحليهنَّ في تبوك وشاركنَّ الرجال في النفقة، حيث اشتركنَّ بكل ما قدرنَّ عليه من مسك، وأسورة ومعاضد، وخلاخيل، وقراط، وخواتيم[٢].

٥ ـ إن اختيار علي عليه السلام بالذات ليكون مكان النبي ﷺ في المدينة يدير شؤونها في غيابه، كان إجراءاً ضرورياً يستهدف حماية المدينة وحفظ كيانها من المنافقين والأعراب الذين تخلفوا عن تبوك بأعداد كبيرة وكان من المحتمل أن يستفيدوا من فرصة غياب النبي ﷺ للانقضاض على المدينة والعبث بأمنها، فكانت الدولة بحاجة إلى شخصية مرهوبة الجانب تملك كفأة القيادة والولاية، ولا تحسب لأحد حساباً مهما بلغ من القوة والمكانة، وتقف سداً منيعاً في وجه كل من يحاول التآمر أو العبث بأمن الدولة وكيانها، وكان النبي ﷺ يعلم بأنه لا يصلح لمهمة كهذه غير علي عليه السلام، وقد قال له النبي ﷺ على ما جاء في مستدرك الصحيحين: «**إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك**».

---

(١) التوبة، ٩١، ٩٢.

(٢) أنظر، الواقدي، المغازي: ج٣، ص٩٩١.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه القيادي:

كما كان رسول الله ﷺ عظيماً في أخلاقه الشخصية والاجتماعية فقد كان عظيماً في خلقه السياسي كرجل دولة..

وهذه بعض ملامح سلوكه القيادي وأخلاقه السياسية:

أ ــ العدل والتدبير: فقد كان ﷺ عادلاً حكيماً مدبراً وقد روى الكافي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: "**كان رسول الله ﷺ يقسم صدقة أهل البوادي في أهل البوادي وصدقة أهل الحضر في أهل الحضر**".

واستطاع بحكمته وتدبيره الحد من العداوات والأحقاد والبغضاء والحروب التي كانت سائدة بين القبائل.

ب ــ حماية القوانين: فقد كان ﷺ حريصاً على حفظ النظام العام ورعاية التشريعات الاسلامية وحمايتها وعدم مخالفتها. ولم يجامل أحداً فيما يعني تطبيق الشريعة وإنزال العقوبة بالمذنب كائناً من كان.

ففي فتح مكة ارتكبت امرأة من بني مخزوم جريمة السرقة. وثبتت السرقة عليها من الوجهة القضائية. لكن قومها الذين كانت الترسبات القبلية ما تزال تعشعش في أدمغتهم رأوا أن إنزال العقاب بها يخدش مكانتهم ويلحق العار بشرفهم. فبذلوا جهدهم وتوسطوا لعلهم يستطيعون رفع العقاب عنها. فأرسلوا أسامة بن زيد الذي كان موضع احترام عند النبي ﷺ مثل أبيه وسبطاً يتشفع لها عند النبي. فغضب النبي ﷺ وقال له: ما هذا محل شفاعة. وأصدر أمره ﷺ بإنزال العقوبة بها وإجراء حدود الله.

ولكي يزيل عن أذهان الناس فكرة المحاباة في تطبيق التشريع وإقامة حدود الله. خطب في الناس ذلك اليوم مشيراً إلى هذه الحادثة وقال: إن الأقوام والأمم السابقة قد بادت وانقرضت لأنها لم تعدل في إجراء الحدود. فعندما كان أحد أفراد الطبقات العليا يرتكب جرماً كان يعفى من العقاب. وإذا ارتكب أحد أفراد الطبقة الدنيا جريمة مماثلة عوقب عليها. ثم أقسم أنه ﷺ لا يتساهل في إجراء حدود الله حتى على أقرب المقربين إليه.

ولم يكن يرى نفسه ﷺ أنه فوق التشريع بل إنه التزم وطبق بدقة ما ألزم به المجتمع.. وقد أعطى القود من نفسه. وعرض القصاص منها. مسجلاً بذلك نقطة ناصعة بيضاء لم يشهد التاريخ لها مثيلاً.

فقد روي أن النبي ﷺ كان يعدل صفوف أصحابه يوم بدر وبيده قدح (سهم) يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية وهو متقدم من الصف، فطعنه في بطنه بالقدح وقال: **"استو يا سواد!"**.

فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: استقد.

فاعتنقه سواد فقبل بطنه.

فقال ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟

قال: حضر ما ترى (من الحرب) فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك.

فدعا له رسول الله بخير.

ج ــ الالتزام بالعهود والمواثيق: فلم يحدث اطلاقاً أن أخلّ ﷺ بعهوده التي أبرمها مع أعدائه وقد أخلّت قريش بعهدها معه، وأخلّ اليهود بعهودهم ومواثيقهم ولكنه لم يخل أبداً بعهده معهم.

د ــ الالتزام بمبدأ احترام الآخرين: وهو المبدأ الخلقي الذي اتبعه النبي ﷺ مع زعماء الدول الذين لم يكونوا على دينه، ففي الرسائل التي بعث بها الرسول الأعظم ﷺ إلى زعماء العالم آنذاك نجد أن النبي ﷺ رغم تصلبه وتشدده في ذات الله قد طبق مبدأ الاحترام مع هؤلاء عندما خاطب كسرى بـ(عظيم فارس) وقيصر بـ(عظيم الروم) وذلك من أجل أن يكشف لهم بأن الاسلام هو الدين الذي جمع كل المبادىء السامية والقيم الاخلاقية.

هـ ــ بُعدُ النظر: إن الدارس لسيرة الرسول ﷺ يرى أن الله تعالى أعطاه من بُعد النظر ما لم يعط غيره. لقد رأينا بُعدَ نظره يوم وضعت قريشٌ الشروطَ لصلح الحديبية، فقد رأى بعض أصحابه أن في هذه الشروط إجحافاً بالمسلمين. ورأى فيها رسولُ الله ــ بما آتاه الله من بُعد النظر ــ النصرَ للمسلمين. ورأى أن قريشاً بوضعها هذه الشروط إنما تحفُرُ قبرَها بيدها، وتكتب دمارَ إطروحتها بقلمها.

ورأينا بُعْدَ نظره في تألفه عبد الله بن أبي بن سلول ــ وكان ذا شوكة ــ يوم قَينُقاع ويوم بني النضير ويوم بني المصطلق، وبقي رسولُ الله يتألّفه حتى انكشف نفاقُه، وظهرت عداوته للإسلام والمسلمين، فجعل قومه بعد ذلك إذا أساءَ الإساءة هُمُ الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه. وعندها قال رسول الله لعمر بن الخطاب: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتُه يوم قلت لي: اقتله، لارتعدتْ له آنفٌ لو أمرتُها اليوم بقتله لقتَلته. فقال عمر: قد ــ والله ــ علمتُ أن أمر رسولِ الله أعظم بركة من أمري[1].

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص٢٤١.

١٩

حركة النفاق في العصر المدني ـ ١

وجد الوثنيون في المدينة أنفسهم في وضع حرج بعد الانتصار الكبير الذي حققه المسلمون في بدر على القيادة الوثنية المتمثلة بقريش، فهم اما أن يبقوا على كفرهم فيعرضوا أنفسهم للعقاب، واما أن ينتموا للدين الجديد، وهم لم يألفوا الانضباط والانقياد لسلطة موحدة، ولا الالتزام بمبادىء وشعائر وأخلاقيات دائمة ثابتة كما يريد الإسلام.

وسرعان ما وجد زعيمهم عبد الله بن أُبي بن سلول ـ الذي كان قد رشح لتتويجه ملكاً على عرب المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ ـ أن خير وسيلة للخروج من هذا المأزق هو أن يعلن هو وأتباعه إسلامهم ظاهراً، ويبقوا على اعتقاداتهم وعلاقاتهم وممارساتهم الجاهلية باطناً، وبهذا ينجون من شبح العقاب، ويحتفظون في الوقت نفسه بمعطياتهم الجاهلية، فضلاً عن أن تظاهرهم بالإسلام واندساسهم في صفوف المسلمين سيتيح لهم فرصة أوسع لتخريب المجتمع الجديد من الداخل، والتنفيس عن حقدهم وهزيمتهم. فاستجابوا لنداء زعيمهم الذي قال لهم في أعقاب سماع نبأ الانتصار الحاسم لجيش الإسلام في بدر «هذا أمر توجَّه فلا مطمع في إزالته» فانضووا إلى الإسلام.

ومنذ ذلك الحين برزت إلى الوجود قوة جديدة في مواجهة الإسلام ـ وهذه المرة من داخل المجتمع الإسلامي ـ سببت له الكثير من المتاعب والمحن، ووضعت في دربه الكثير من الحواجز والعقبات، ومارست إزاءه من الداخل عمليات تخريبية لا حصر لها.

الأساليب العدائية للمنافقين:

اتخذت أساليب المنافقين في مواجهة الإسلام أشكالاً شتى، بعضها مخطط مدروس، وبعضها عفوي مرتجل، وهي في كلتا الحالتين استهدفت وضع الحواجز والعراقيل في طريق الإسلام والتخريب من الداخل.

ونستعرض هنا بعض أساليبهم ومظاهر عدائهم وتخريبهم وفق مجراها الزمني منذ ظهور هذه الكتلة في أعقاب بدر حتى وفاة الرسول الأعظم ﷺ، فنقول:

أولاً: مدّ يد العون لليهود ومساندتهم فيما كانوا يحيكونه من مؤامرات على الاسلام، فقد كان المنافقون على صلة دائمة بهم، بل ان اليهود هم الذين أذكوا حركة النفاق في المدينة، بعدما التقت أهدافهم مرحلياً معها، لأنهم جميعاً كانوا يرون أن إنتصار الإسلام وانتشاره وازدياد نفوذه يضر بمصالحهم وبموقعهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي في المنطقة.

أ ـ فعندما حاصر الرسول ﷺ بني قينقاع، أول قبيلة يهودية كبيرة تنقض عهدها مع النبي ﷺ، تحرك زعيم المنافقين بسرعة، ووقف إلى جانب بني قينقاع مدافعاً عنهم ازاء هجوم المسلمين طالباً لهم العفو والمغفرة، فنزلت آيات القرآن منددة بهذا الموقف المنافق، المتأرجح بين ولاية الإسلام وولاية أعدائه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم، يقولون: تخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين**﴾[1].

ب ـ وفي حصار بني النضير، القبيلة اليهودية الثانية التي طُردت من المدينة في أعقاب تآمرها على حياة رسول الله ﷺ، أعاد ابن أبي وكبار المنافقين تمثيل نفس الدور الذي مثلوه مع بني قينقاع، إذ بعثوا إلى بني النضير، وهم يعانون من حصار المسلمين وقبضتهم المحكمة أنْ اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قاتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم» فنزلت آيات القرآن فاضحة منددة كاشفة موقفهم: ﴿**ألم ترى**

(١) المائدة، ٥١ ـ ٥٢.

إلى الذين نافقوا يقولون لأخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أُخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون، لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قُوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا يُنصرون﴾[1].

ثانياً: ارتكاب الخيانة بالانسحاب من ميادين الجهاد في اللحظات الحرجة، وتثبيط الناس وتفريقهم عن رسول الله ﷺ وشل إرادتهم عن الجهاد، وإظهار الشماتة في ساعات المحنة، وتشكيك المسلمين بصحة موقفهم وسلامة نهجهم، وهذا ما برز في الوقائع التالية:

أ ـ ففي أحد انسحب ابن أبي بثلث المقاتلين من منتصف الطريق احتجاجاً على عدم الأخذ برأيه القائل بقتال قريش في داخل المدينة حيث قال مبرراً موقفه: «أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس!».

ب ـ وهذا الأسلوب تكرر مرة أخرى في غزوة تبوك التي لا تقل خطورة عن معركة أحد، إذ انطلق ابن أبي في أعقاب رسول الله ﷺ على رأس جماعة (المنافقين) وما أن اجتاز المسلمون مسافة قصيرة نحو هدفهم حتى تخلف المنافقون وقفلوا عائدين إلى المدينة[2].

وإذا كان لهم عذر في ذلك أول مرة وقد أعلنوه لانسحابهم، فإنهم قد افتقدوا الأعذار هذه المرة ولم يعلنوا شيئاً!! إلا أن الموقف في كلا الحالتين هو نفس الموقف: عدم إيمان بالهدف الذي يتحرك إليه المسلمون، وخوف من الموت في سبيل قضية لا يؤمنون بها، وتخذيل للمسلمين في اللحظات الحرجة لعلهم يُجابهوا بهزة خطيرة تقضي عليهم وتعيد المنافقين إلى حياة الجاهلية القديمة، ويرجع لابن أبي حلمه القديم في أن يكون ملكاً على قومه!!.

ج ـ وبعدما تلقى المسلمون ضربة قاسية في بعض جولات معركة أُحُد وجد المنافقون ميداناً فسيحاً لإظهار أحقادهم وشكوكهم والكشف عن موقفهم الصريح من الأحداث، فاظهروا الشماتة والسرور بما أصاب المسلمين وأساؤوا للنبي ﷺ بالقول، فقد قال ابن

---

(١) الحشر ـ ١١ ـ ١٢.

(٢) أنظر، سيرة ابن هشام.

أبي لإبنه عبد الله الذي جُرح في أحد: ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي!! عصاني محمد وأطاع الولدان، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا. فقال إبنه: الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير..[1].

وجعل المنافقون يخذلون المسلمين عن رسول الله ﷺ ويأمرونهم بالتفرق عنه، ويقولون لأصحابه: لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل.

وقالوا أيضاً: ما محمد إلا طالب ملك، وما أصيب بمثل هذا نبي قط، أصيب في بدنه وأصيب في أصحابه.

د ـ وفي معركة الخندق حيث أحاطت الأحزاب بالمدينة، وعظم البلاء على المسلمين، تصاعدت حملات المنافقين، فأخذوا يثيرون شائعات الخوف والهزيمة، ويسخرون من المؤمنين الذين كانوا يندفعون بجد إلى العمل والسهر المتواصل في حفر الخندق وفي غيره من أجل حماية الإسلام.

فقد قالوا: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدهم اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!!.

وراح آخرون يقولون للنبي ﷺ: يا رسول الله إن بيوتنا عورة (مكشوفة) من العدو، فأذن لنا أن نخرج إلى أهلنا ونرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة...

وكان رسول الله ﷺ يواجه حملاتهم النفسية هذه بروح الأمل يبثها في قلوب أصحابه، ويحدثهم بيقين ثابت بأن نصر الله قريب، وأن خيولهم ستطأ في السنين القادمة عواصم كسرى وقيصر وتسقط عروشهم واحداً بعد الآخر.

وقد تحدث القرآن عن أساليبهم في الخندق فقال تعالى: ﴿**وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا..**﴾ الخ الآيات حتى قوله: ﴿**ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا**﴾[2].

ثالثاً: التخريب الداخلي وإثارة الفتنة بين فئات المسلمين، ونشر الشائعات الهدامة.

ففي غزوة بني المصطلق حاولوا إثارة الحس القبلي بين المهاجرين والأنصار وكادت

(١) أنظر، الواقدي، المغازي: ج١، ص٣١٧.

(٢) راجع سورة الأحزاب، الآيات: ١٢ إلى ٢٠.

أن تقع فتنة بين الطرفين لا يعلم الا الله مداها لولا حكمة النبي ﷺ، فقد حدث ـ حينذاك ـ ان ازدحم على بئر هناك غلام من بني غفار لعمر بن الخطاب، مع غلام جهني من يثرب، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ الغفاري: يا معشر المهاجرين! وكاد أن يقع القتال بين الفريقين إلا أن أحدهما ما لبث أن عفا عن الآخر واصطلح الرجلان بعد تدخل بعض المسلمين من المهاجرين والانصار. فرأى زعيم المنافقين أن ينتهز فرصة هذه الحادثة فأظهر غضبه وقال بعصبية: «أوقد فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عُدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول (سَمِّنْ كلبك يأكلك): والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزّ منها الأذل».

ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم: «هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم».

رابعاً. قيامهم بأعمال يراد منها الاضرار بالمسلمين وتفريق صفوفهم ووحدتهم وتماسكهم، وذلك كبنائهم (مسجد الضرار) الذي تحدث عنه القرآن وأطلق عليه هذه التسمية، فكشف بذلك نياتهم وفضح خطتهم التي استهدفت احداث تمزق وانشقاق في قلب المجتمع الإسلامي. قال تعالى: ﴿**والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وارصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون، لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين**﴾[1].

(١) التوبة. ١٠٧. ١٠٨.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

سلوكه العسكري والأمني:

يصف المحللون العسكريون أن رسول الله ﷺ كان قائداً عسكرياً فذاً. وقد أدار المعارك العسكرية التي خاضها ضد المشركين واليهود وغيرهم من أعداء الاسلام بكفاءة وخبرة عالية وهذه نماذج من سلوكه وتدابيره العسكرية والأمنية.

١ ــ **التجسس العسكري:** ويبدو أنه لم تخل معركة من معارك الاسلام الكبرى إلاّ واستخدم النبي ﷺ فيها التجسس العسكري وقام بجمع المعلومات عن العدو واستطلع تحركاته وأوضاعه المختلفة عن طريق العيون والطلائع وغيرهم.

فعندما خرج إلى بدر بعث بسبسة بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني يتجسسان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره.

وفي أحد أرسل ﷺ الحباب بن المنذر إلى القوم فدخل فيهم وقدّر عددهم وحجم عتادهم ونظر إلى جميع ما يريد. وبعثه سراً وقال له: لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلاّ أن ترى قلة فرجع فأخبره خالياً.

وقام بهذه المهمة حذيفة بن اليمان يوم الخندق.

كما بعث عبد الله بن حدرد عيناً على هوازن لجمع المعلومات عن موقفهم وخطتهم في حنين. وبريدة بن الحصيب عيناً على بني المصطلق. وعبد الله بن رواحة عيناً على غطفان وغيرهم كثير.

٢ ــ **الكتمان والسرية وأمن المعلومات:** فقد كان ﷺ يحيط تحركاته العسكرية بالسرية التامة. ويحرص على كتمان أهدافه والجهة التي يقصدها حتى عن المقربين. لئلا تتسرّب المعلومات الى العدو فيستفيد منها. وحرصاً منه ﷺ على تحقيق عنصر المباغتة ومفاجئة العدو. فعندما قرر النبي ﷺ فتح مكة أخفى نياته ولم يطلع المسلمين على وجهته وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

وقد روي أنه ﷺ كان إذا أراد غزوة وّرى بغيرها.

ولم يكتف ﷺ باتخاذ هذه الاحتياطات بل كان يراقب الطرق ويتخذ اجراءات أمنية مشددة كمنع السفر ونحوه كما في فتح مكة لئلا تتسرب المعلومات عن تحركاته العسكرية عن طريق المنافقين والذين في قلوبهم مرض وغيرهم من أعداء الاسلام.

٣ ــ **الحرب النفسية:** واستخدم النبي ﷺ الحرب النفسية ضد العدو بغية تحطيم

معنوياته وشل إرادته وتفتيت وحدته الداخلية وبث الرعب والخوف واليأس في قلوب أعدائه.

فقد كان يأمر أصحابه بهجاء قريش، وقد كان يقوم بهذه المهمة حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهما، وكان يقول ﷺ: اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق بالنبل.

وفي عمرة القضاء قال لأصحابه: ارملوا بالبيت ثلاثاً ليرى المشركون قوتكم، فلما رملوا قالت قريش: ما وهنتهم.

وعندما سار لفتح مكة ووصل إلى مشارفها أمر ﷺ أصحابه في النهار بجمع الحطب ولما دخل الليل أمرهم بالتفرق واشعال النيران في كل مكان ليوهم العدو بأنه أمام حشد كبير لا طاقة له على مواجهته. حتى أن أحد أصحابه يقول: لقد كنا تلك الليالي نوقد خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا في كل وجه حتى كان مما كبت الله تعالى عدونا.

كما أنه ﷺ قبل أن يدخل مكة فاتحاً استعرض جيش المسلمين وأمر العباس بن عبد المطلب أن يحبس أبا سفيان في المضيق الذي تزدحم فيه الخيل حتى ينظر الى المسلمين وقوتهم، فحبسه العباس، وجعلت القبائل المسلمة تمر مع النبي ﷺ كتيبة كتيبة على أبي سفيان في أكبر استعراض للقوة شهدته المنطقة آنذاك.

٢٠

حركة النفاق في العصر المدني ـ ٢

موقف النبي ﷺ من حركة النفاق:

من الثابت تاريخياً أن النبي ﷺ لم يدخل في صراع مسلح ضد المنافقين كما فعل مع القوى الوثنية، واليهودية، والنصرانية، بالرغم من كل ممارساتهم التخريبية، بل انه ﷺ حتى لم يعزلهم عن المجتمع الاسلامي ـ باستثناء ما حدث في أعقاب غزوة تبوك ـ وإنما كانوا ينخرطون حتى في الجيش الإسلامي ويشاركون في العمل الجهادي ولم يتخذ تدبيراً يمنعهم به من الحضور في ساحة الجهاد في الوقت الذي كان يعلم أنهم إنما يفعلون ذلك إما تمهيداً للخيانة بالمسلمين وتسليمهم إلى أعدائهم، وإما طمعاً في المال والغنائم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا لم يدخل النبي ﷺ معهم في صراع مسلح ويقضي على حركتهم كما فعل مع غيرهم من أعداء الإسلام؟ علماً أن خطرهم لا يقل عن خطر اليهود والمشركين بل ربما يكون خطرهم أعظم إذا لاحظنا أنهم يعملون بالخفاء من الداخل؟؟

ولماذا يقبلهم النبي ﷺ في جيش المسلمين؟ مع أن ذلك يشكل خطراً عليهم؟ وإذا كان يمنع أفراد اليهود وغيرهم من الكفار من المشاركة، فلماذا لا يتخذ تدبيراً معيناً يمنع به المنافقين من الحضور إلى ساحة الحرب مع المسلمين؟!

والجواب يتلخص في النقاط التالية:

١ ـ ان مشكلة المنافقين تكمن في أن هذه القوة المعادية غير واضحة الأبعاد مندسة

في صفوف المسلمين، قديرة على الاستخفاء في أعقاب أي تخريب تمارسه، وقحة إلى حد إنكار الجرم المتلبسة به والتفلت مما يدينها، مما جعل من أي عمل تخريبي تنسبه إليها لا يعدو كونه في الظاهر ولدى الرأي العام مجرد تهمة مشكوك فيها، فلم يكن بإمكان الرسول ﷺ والحال هذه أن يعاقبهم أو حتى أن يعزلهم لأنه سيفسر ذلك بأن النبي يعاقب على التهمة ويأخذ بالظنة ويحصد مئات الرؤوس لمجرد الشك في أنها تتآمر على سلامة الدولة.

٢ ـ ان المنافقين كانوا يتظاهرون بالاسلام، ويشهدون خمس مرات في اليوم بشهادة الاسلام، وإنما يحاسب الناس بحسب أعمالهم الظاهرة، وهؤلاء منافقون وظاهرهم المكشوف ظاهر إسلامي، على خلاف باطنهم، فكيف يعاقبهم؟! وقد عرف عنه ﷺ أنه كان لا يتعرض لمن يظهر الإسلام بسوء، ولذا نجده ﷺ يرفض مراراً وتكراراً عروضاً من بعض أصحابه بقتل رؤوس المنافقين وقطع رقابهم ليس إلا لأنهم يشهدون في الظاهر بشهادة الإسلام.

ففي تبوك حين أراد بضعة عشر منافقاً أن يمكروا بالرسول ﷺ ويطرحوه من عقبة في الطريق، وعرض عليه بعض أصحابه أن يقطعوا رؤوسهم، أجابهم ﷺ: «**إني أكره أن يقول الناس أن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه**».

وعندما قال له أسيد بن حضير: يا رسول الله فهؤلاء ليسوا بأصحاب، أجابه النبيﷺ: «**أليسوا يظهرون شهادة ان لا إله إلا الله؟ أليسو يظهرون اني رسول الله؟**»، قال: بلى، ولا شهادة لهم، قال: «**فإني نهيت عن قتل أولئك**»[1].

٣ ـ ان ممارسة القتل الجماعي أو الفردي تجاه اشخاص من أتباع النبي في الظاهر، محسوبين على معسكره، سوف يعطي لأعدائه في الخارج سلاحاً دعائياً ممتازاً لمهاجمة الإسلام، وذريعة لتخويف الناس من الدخول في الاسلام بحجة أنهم لن يجدوا فيه الضمانات الكافية على حياتهم.

وقد قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب معترضاً على الحاحه عليه بممارسة هذا

(١) أنظر، الواقدي، المغازي: ج٣، ص١٠٤٢ ـ ١٠٤٤.

الأُسلوب تجاه المنافقين وذلك في غزوة بني المصطلق عندما حاولوا إثارة الفتنة بين المسلمين وفي غيرها من المناسبات: «**أتريد أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟!**»[1].

وهذا حق، فهم على المستوى السياسي والقانوني من أتباع محمد ﷺ، وما دام أي منهم لم يمارس عملاً (جرمياً) محدداً فإن من الصعوبة بمكان قتله أو عزله..

٤ ـ ثم إن النفاق قد لا يتخذ صفة العنف، بل يظهر المنافق الإسلام حفاظاً على مصالحه، أو لأسباب خاصة أخرى، مع عدم إبائه عن الدخول فيه، وتقبّله طبيعياً له، فهو لا يهتم بهدم الإسلام والكيد له. فتبرز الحاجة ـ والحالة هذه ـ إلى إعطائهم الفرصة للتعرف أكثر فأكثر على تعاليم الإسلام وأهدافه، ولكي يعيشوا أجواءه من الداخل، وليكتشفوا ما أمكنهم من أسرار عظمته وأصالته، فتلين له قلوبهم، وتخضع له عقولهم. ولا أقل من أن أبناءهم، ومن يرتبط بهم، يصبح أقدر على ملامسة واقع المسلمين، والتفاعل مع تعاليم الإسلام ما دام أنه يعيشها بنفسه، وتقع تحت سمعه وبصره.

وهذا بالذات ما كان يهدف إليه الإسلام من التألف على الإسلام، وإعطاء الأموال والأقطاع، وحتى المناصب والقيادات لمن عرفوا بـ «المؤلفة قلوبهم»، بالإضافة إلى ما كان يهدف إليه من دفع كيدهم وشرهم.

وما تقدم يفسر لنا السبب الذي جعل رسول الله ﷺ كان يُقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم، يتألفهم بذلك، حتى إن عمرو بن العاص ظن بنفسه أنه خير القوم. ثم صار يسأل النبي ﷺ عن المفاضلة بين نفسه وغيره، فلما عرف: أنهم أفضل منه، قال: «**فلوددت أني لم أكن سألته**».

٥ ـ إن سكوته ﷺ عن المنافقين، وقبولهم كأعضاء في المجتمع الإسلامي، إنما يريد به المحافظة على من أسلم من أبنائهم، وإخوانهم، وآبائهم، وأقاربهم، حتى لا تنشأ المشاكل العائلية الحادة فيما بينهم؛ ولا يتعرض المسلمون منهم للعقد النفسية، والمشكلات الإجتماعية، التي ربما تؤثّر على صمودهم واستمرارهم.

---

(١) أنظر، البداية والنهاية: ج٤، ص١٥٨.

٦ ـ وكذلك، فإن اتخاذ أي إجراء ضد المنافقين، لربما يكون سبباً في تقليل إقبال الناس على الإسلام، وعدم وثوقهم بمصيرهم، وما سوف يؤول إليه أمرهم معه فيه، ولا سيما إذا لم يستطيعواأن يتفهّموا سر ذلك الإجراء، ولا أن يطلعوا على أبعاده وخلفياته.

ولسوف يأتي: أن سبب إظهار وحشي للإسلام، هو أنه كان معروفاً عن النبي ﷺ: أنه كان لا يتعرض لمن يظهر الإسلام بشيء يسوءه.

٧ ـ إن اتخاذ أي إجراء ضد المنافقين معناه: فتح جبهة جديدة، كان بالإمكان تجنبها، واضطرار هؤلاء الساكتين ظاهراً، انصياعاً لظروفهم، إلى المجاهرة بالعداء، والإعلان بالتحدي، وهم عدو داخلي كثير العدد، وخطير جداً، يعرف مواضع الضعف، ومواضع القوة، ويكون بذلك قد أعطاهم المبرر للإنضمام إلى الأعداء، العاملين ضد الإسلام والمسلمين.

وواضع أن تصرفاً كهذا ليس من الحكمة ولا من الحنكة في شيء لأنه يأتي في ظرف يحتاج فيه الإسلام إلى تمزيق أعدائه وتفريقهم؛ حيث لا يستطيع مواجهتهم جميعاً في آن واحد[1].

والخلاصة: ان مواجهة المنافقين بالعنف والقتل والصراع المسلح لم تكن في مصلحة الإسلام والمسلمين ولذلك فلم يلجأ النبي ﷺ إلى هذا الأسلوب.

وكان بديل هذا الاسلوب شيئاً نادراً في تاريخ الدعوات، فقد تتبع النبي ﷺ خطط المنافقين وتخريبهم بيقظة كاملة، ولم يحدد أسلوباً (ثابتاً) في مجابهة مواقفهم (المتلونة).

وانما راح يضع لكل حالة إجراءاً أو خطة تتناسب تماماً وحجم المحاولة التخريبية، وتكبتها قبل أن تأتي بثمارها المرة، وقبل أن تزرع شوكها في طريق الدعوة..

فنجده ﷺ أثناء التجهز لتبوك عندما علم باجتماع المنافقين في بيت أحد اليهود ليثبطوا الناس عن الخروج يتخذ إجراءً فورياً بحقهم فيأمر بحرق الدار عليهم.

وفي أعقاب تبوك في حادثة (مسجد الضرار) نجده أيضاً يتخذ إجراءً عملياً ضد المنافقين، فيأمر بهدم مسجد الضرار وإحراقه.

---

(١) راجع في النقاط المتقدمة، الصحيح من سيرة النبي ﷺ: ج٦، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

وفي أعقاب تبوك أيضاً يتخذ النبي ﷺ موقفاً بحق المنافقين المتخلفين عن الغزوة فيأمر بعزلهم اجتماعياً وعدم الصلاة عليهم وعدم اشراكهم في الجهاد بعدما نزل القرآن بذلك[١].

وفي موقف آخر نجده ﷺ يفضحهم ويكشف عن حقيقتهم، وينبّه الصحابة إلى خططهم ومؤامراتهم، ويحذر الناس منهم، ويذكر أفعالهم وأوصافهم.

وكان هذا بطبيعته يمثل حصانة ومناعة للمسلمين ضد النفاق والمنافقين ومكائدهم، وإفشالاً لكل مخططاتهم ومؤامراتهم.

ومن وراء الرسول ﷺ كانت آيات القرآن الكريم تتنزل من الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، محللة التكوين النفسي للمنافقين، مشخصة نماذج منهم نكاد نلمسها بأيدينا وهي تتلى علينا فاضحة خططهم اللئيمة قبل أن تقع، منددة بأساليبهم، مظهرة أفعالهم، ناقلة أقوالهم، مبينة أوصافهم بدقة، صابة عليهم غضبها المخيف في أعقاب أية محاولة يستهدفون من ورائها فتنة، أو خديعة، أو مكراً[٢].

وهكذا مضت المراحل الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ والاسلام يزداد قوة ومنعة وانتشاراً، وزعماء القبائل العربية ينهالون على المدينة معلنين إسلامهم أمام رسول الله ﷺ، ولم يجد المنافقون منفذاً يتسللون منه لتسديد ضربة مؤذية أو تنفيذ مخطط تخريبي جديد، لا سيما وأن زعيمهم عبد الله بن أبي كان قد توفي في أواخر السنة التاسعة، وكانت الآيات القرآنية في سورة التوبة قد نزلت ـ أخيراً ـ تندد بما فعل ويفعل أولئك المنافقون وتمزق بشكل نهائي الأستار التي يتوارون خلفها، وكانت ألاعيبهم قبل تبوك

---

(١) راجع سورة التوبة الآيات: ٨٣، ٨٤، ٨٥.

(٢) حول صفات المنافقين وأقوالهم راجع: سورة البقرة الآيات: ٨، ١٦، ٢٠٤، ٢٠٦. سورة النساء الآيات: ١٣٧، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦. سورة التوبة الآيات: ٥٦، ٥٧، ٦٢، ٦١، ٦٧، ٦٨، ٧٣، ٧٧، ٨٤، ٨٥، ٩٧، ٩٨، ١٠١. سورة محمد الآيتان: ٢٩، ٣٠. سورة الحديد الآيتان: ١٣، ١٤. سورة المنافقون الآيتان: ١، ٨.

وحول مواقفهم الكيدية والساخرة راجع سورة النساء الآيات: ٦٠، ٦١، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١. سورة التوبة الآيات: ٥٨، ٦١، ٦٤، ٦٥، ٧٩، ٨٠، ١٠٧، ١١٠، ١٢٤، ١٢٧. سورة المجادلة الآيات: ٨، ١٠، ١٤، ١٦. سورة البقرة الآيتان: ١١، ١٤. سورة الانفال الآية: ٤٩. سورة النور الآيتان: ٦٢، ٦٣. سورة الأحزاب الآيات: ٥٧، ٦١، ٦٩، ٧١. سورة محمد الآيات: ١٦، ٢٥، ٢٦. سورة المائدة الآيتان: ٥٠، ٥٣.

وحول مواقفهم من الجهاد ووقائعه راجع: سورة آل عمران الآيات: ١٥٦، ١٦٦، ١٦٨. سورة النساء الآيات: ٧١، ٧٣، ٧٧، ٨١. سورة التوبة الآيات: ٤٢، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٨١، ٨٣، ٨٦، ٨٧، ٩٠، ٩٣، ٩٦.

وبعدها هي النهاية الحاسمة للسماحة التي أبداها الرسول معهم طويلاً ولم يقدّروها حق قدرها، حيث أمر النبي ﷺ بعد ذلك أن يُعلنَ على الناس ذبذبتهم وكيدهم، وكُلف ألا يقبل منهم ولا يصلي عليهم، بل أُعلم أن استغفاره لهم لن يجاب، ثم طُولب المسلمون كافة أن يقاطعوهم، إلا أن الرسول ﷺ ما ان توفي حتى وجد المنافقون فرصتهم السانحة هذه المرة لحرف خلافة النبي ﷺ عن مسارها الحقيقي الذي كان قد أعدَّ له النبي ﷺ في حياته، وتغيير مجرى التاريخ الإسلامي إلى غير وجهته. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

أخلاقه في أسرته / ١

علاقة الرسول ﷺ بنسائه:

كما كان رسول اللّه ﷺ مثلاً أعلى في شتى ألوان تعامله وانماط سلوكه، كان كذلك في علاقاته بازواجه، كي يكون قدوة لأمته في كل شأن من شؤونها في الحياة كما شاء اللّه تعالى.

وهذه بعض أساليب تعامله مع أزواجه:ـ

١ ـ **إلتزام العدل الكامل في معاملتهن في:** النفقة والمسكن والملبس والمبيت والزيارات والوقت، فبالرغم من أنهﷺ كانت في أزواجه الشابة والجميلة والمسنة والعادية في جمالها، لكن ذلك لا يصرفه بحال عن التزام أعلى درجات الكمال في العدل بينهن، فلا تفضيل لواحدة على أخرى.

لقد خصص لكل واحدة منهن ليلة، وكان إذا زار إحداهن زار الجميع بعد ذلك، وان عزم على سفر من أجل جهاد أم حج أقرع بين نسائه، فيصحب من تفوز بقرعته، حتى لا يؤذي قلوبهن ان اختار واحدة إختياراً من عنده.

٢ ـ **مداراته لأزواجه ورعايتهن بالرفق والحب:** فمن مظاهر ذلك، مسامرتهن في الليل، والتداول معهن في بعض الشؤون، وعدم إيذاء واحدة منهن أبداً.

فبالرغم من كثرة مضايقات بعض نساء النبي ﷺ له، فإن ذلك لم يصرفه عن التزام الرفق والشفقة والعدل في معاملتهن، حتى انه لم يضرب واحدة منهن طوال حياته، وان كان يوبخهن أحياناً أو يبدو منه الغضب لمواقفهن غير المرضية، وإلى هذا أشارت عائشة بقولها: "ما ضرب النبي ﷺ إمرأة قط، ولا ضرب خادماً"[١].

ومن أخلاقه ﷺ في إطار بيته أنه لا يأنف أبداً من مساعدة زوجاته، سواء فيما يتعلق بالشؤون الخاصة به، أو ما يتعلق بهن.

وكان ﷺ يقول: "**ألا خيركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي**".

"**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**"[٢].

"**خدمتك زوجتك صدقة**"[٣].

---

(١) الأصبهاني ـ أخلاق النبي ـ ص ٣٥. (٣) حوى ـ الرسول ـ ج١ ـ ص ١٦٥.

(٢) العاملي ـ الوسائل ـ ج٧ ص ١٢٢.

٣ ــ ومن حسن سيرة المصطفى ﷺ مع أزواجه: انه كان ينجمّل لنسائه، ويهتم بملاطفتهن، ويرضي عواطفهن.

فقد روي: "كان رسول اللّه ﷺ يطلب الطيب في جميع رباع ــ حجرات ــ نسائه"[١].

وقد كان رسول اللّه ﷺ يوصي الوصية تلو الوصية بالمرأة، ويرشد إلى طريقة مثلى للتعامل معها:

قال ﷺ: **"أوصاني جبرئيل بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشة مبينة"**[٢].

ومن نافلة القول أن نذكر هنا ان من سيرة المصطفى ﷺ مع أزواجه أنه كان يحرص على تهذيب أخلاقهن بالخلق الإسلامي الكريم، ويعمل على توجيههن الوجهة السليمة.

---

(١) الأصبهاني ـ اخلاق النبي ـ ص ١٠٤.

(٢) العاملي ـ الوسائل ـ ج٧ ـ ص ١٢١.

٢١

وفاة النبي ﷺ

حجة الوادع:

عندما حان موعد الحج من العام العاشر للهجرة، أعلن رسول الله ﷺ أنه سيحج بنفسه في الناس هذا الموسم، فاجتمع إليه الناس من كل مكان، ثم ما لبث أن غادر المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة مصطحباً معه نساءه وابنته فاطمة الزهراء عليها السلام.

وبدأت مراسيم الحج فانطلق آلاف المسلمين يؤدون مناسكهم كما بينها لهم رسول الله ﷺ. ورأى النبي ﷺ أن يستفيد من هذا التجمع الكبير فألقى خطاباً شاملاً في عرفة أكد فيه القيم والتعاليم التي بعث من أجلها،

بيعة غدير خم:

لما أتم رسول الله ﷺ حجه خرج من مكة متجهاً إلى المدينة ومعه تلك الوفود التي لم تشهد لها مكة نظيراً في تاريخها آنذاك، ولما انتهى إلى مكان قريب من الجحفة يقال له غدير خم، وقبل أن يتفرق الناس كلٌ إلى ناحيته، نزل في ذلك المكان في الصحراء وكان يوماً قائظاً شديد الحرارة، بعد أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس**﴾.

فأمر ﷺ بدوحات فجمعت له ووقف عليها حتى يراه الناس ويسمعوه، فحمد الله

واثنى عليه ثم قال كما في (البداية والنهاية): كأني دعيت فأجبت، إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فانهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، ثم قال: «**الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ومؤمنة**»، وأخذ بيد عليعليه السلام وقال: «**من كنت مولاه فهذا علي وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه**»، وأضاف إلى ذلك في (البداية والنهاية)، أن الرواي قال قلت لزيد بن أرقم: أنت سمعته من رسول الله، فقال: ما كان في الدوحات أحد إلا رآه بعينه وسمعه بأذنيه.

وجاء في رواية: ان عمر بن الخطاب لقي علياً عليه السلام بعد أن فرغ النبي ﷺ من خطابه وقال له: «**هنيئاً لك يا ابن أبي طالب لقد أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة**».

وفي رواية أخرى رواها ابن كثير في البداية والنهاية عن أبي هريرة: أنه لما أخذ النبي ﷺ بيد علي عليه السلام وقال: «**من كنت مولاه فهذا علي مولاه**» أنزل الله على نبيه: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾.

وروى المفيد في كتاب الارشاد ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً ـ أن النبي ﷺ بعد أن انتهى من خطابه أفرد لعلي عليه السلام خيمة وأمر المسلمين بأن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً ويسلموا عليه بأمرة المؤمنين، ففعل الناس ذلك كلهم، وأمر أزواجه وسائر نساء المؤمنين ممن معه أن يفعلن ذلك، وقال له عمر بن الخطاب يوم ذاك: بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

وجاءه حسان بن ثابت يستأذنه أن يصف موقفه من علي في ذلك اليوم فأذن له، فوقف على مرتفع من الأرض وتطاول المسلمون لسماع كلامه فأنشأ يقول:

ينـاديهم يـوم الغـديـر نبيهـم ... بخـم واسمـع بـالنبي منـاديـا
وقـال فمـن مـولاكـم ووليكـم ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
الهـك مـولانـا وأنـت وليـنا ... ولن تجدن منا لك اليوم عاصيا
فقـال لـه قـم يـا علـي فانني ... رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمـن كنـت مـولاه فهـذا وليـه ... فكونوا لـه أنصار صدق مواليا
هنـاك دعـا اللهـم وال وليـه ... وكن للـذي عـادى عليـاً معـاديا

فقال له النبي ﷺ لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك.

وجاء في الكافي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: أمر الله عز وجل رسوله بولاية

علي عليه السلام وأنزل عليه ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾، فلم يدروا ما هي الولاية فأمر الله محمداً ﷺ أن يفسر لهم الولاية كما فسر الصلاة والزكاة والحج والصوم، فلما أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدره وتخوف أن يرتدوا عن دينهم وأن يكذبوه وراجع ربه فأوحى إليه: ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس**﴾ فصدع بأمر الله عزّ وجلّ وقام بولاية علي يوم غدير خم وأنزل الله عليه بعد ذلك.

﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾.

وهكذا مارس الرسول ﷺ ما من شأنه أن يحفظ الرسالة ومستقبل الإسلام.

جيش أسامة:

لم يطل بالمسلمين المقام بعد رجوعهم من حجة الوداع حتى أمر النبي ﷺ بتجهيز جيش لعله من أكبر الجيوش التي عرفتها المدينة من قبل، بدليل أنه حشد في ذلك الجيش وجوه المهاجرين كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من المهاجرين والأنصار كما تنص على ذلك المؤلفات في السيرة والتاريخ، وأمَّر على ذلك الجيش أسامة بن زيد بن حارثة وهو يوم ذاك في مطلع شبابه لا يتجاوز العشرين من عمره، مما دعا إلى دهشة كبار الصحابة واستيائهم من تأميره عليهم، وتثاقلوا في تنفيذ أوامره بالرغم من تأكيداته المتتالية على تسريح الجيش بقيادته، واضطر ﷺ أن يخرج إلى الناس ويحثهم على الخروج والجهاد بقيادة أسامة، وبدا عليه الانزعاج والتصلب حينما طالبوه بأن يولي عليهم غيره، وقال لهم: لعمري لئن قلتم في إمارته اليوم فلقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وانه لخليق بالامارة كما كان أبوه خليقاً بها من قبل.

وكان من جملة الدوافع التي دعت النبي ﷺ إلى التصميم على إرسال هذا الجيش أن الدولة الرومانية جعلت تطارد وتقتل كل من دخل في الاسلام من رعاياها، ومن بين الذين قتلتهم بسبب اعتناقهم الاسلام فروة بن عمرو الجذامي، وكان والياً على معان وما حولها من أرض الشام.

ومهما تكن الأسباب الداعية لتجهيز ذلك الجيش، فقد أمر النبي ﷺ أسامة أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مؤتة حيث قتل

والده، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح ويمعن فيهم قتلاً وتشريداً، وأن يتم ذلك بأقصى سرعة قبل أن تصل أخباره إليهم.

وخرج أسامة بالجيش إلى الجرف على مقربة من المدينة وعسكر فيه ريثما يتم تجهيزه، وخلال ذلك بدأ النبي ﷺ يحس بدنو أجله، وبدأ المرض يشتد عليه، فبدأت محاولات لعدم تحرك الجيش من مكانه، وبخاصة بعد أن أحسوا أن مرض النبي يزداد من وقت لآخر ويشكل خطراً على حياته.

وقال المؤرخون «ان رسول الله ﷺ استبطأ الناس في بعث أسامة، وأخذ الوجع يشتد به فخرج عاصباً رأسه وجعل يحثهم على الخروج، ثم قال: «**أيها الناس إني أوشك أن أُدعى فأُجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما.**

أيها الناس لا الفيتكم ترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقوني في كتيبة كمجر السيل الجرار، ألا وإن علي بن أبي طالب أخي ووصي يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»[1].

والسؤال الذي يطرح هنا: هو أن النبي مادام يعلم بدنو أجله وبوفاته بعد أيام قليلة، فلماذا أصرَّ حتى النفس الأخير على تسريح جيش أسامة وانضمام كبار الصحابة إلى هذا الجيش وترك علي عليه السلام في المدينة؟

والجواب: أن النبي ﷺ أراد بذلك أن يهيىء الظروف المناسبة لتسلم علي عليه السلام للخلافة من بعده، وإبعاد كل العناصر المناوئة عند وفاته ﷺ عن المدينة، لئلا يطمعوا في الخلافة ويحولوا دون تنفيذ وصيته في استخلاف علي عليه السلام ولذلك لم يجعل أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك الجيش وجعل فيه أبا بكر وعمر وغيرهما ليتم له الأمر بدون منازع.

يقول الشيخ المفيد في الارشاد: اجتمع رأيه ﷺ على إخراج جماعة من متقدمي المهاجرين والأنصار في معسكره (جيش اسامة) حتى لا يبقى في المدينة عند وفاته ﷺ

(١) الارشاد للمفيد: ص٩٦.

من يختلف في الرئاسة، ويطمع في التقدّم على الناس بالإمارة، ويستتبُّ الأمرُ لمن استخلفه من بعده، ولا ينازعه في حقه منازع[١].

الوصية الأخيرة:

اشتد المرض بالنبي ﷺ، فمكث ثلاثة أيام موعوكاً، ثم خرج إلى المسجد معصوب الرأس معتمداً على أمير المؤمنين عليه السلام وعلى الفضل بن العباس، حتى صعد المنبر فجلس عليه ثم قال: «**معاشر الناس، قد حان مني خفوف من بين أظهركم، فمن كان له عندي عِدَةٌ فليأتني أُعطه إياها، ومن كان له عليَّ دينٌ فليخبرني به. معاشر الناس، ليس بين الله وبين أحد شيء يُعطيه به خيراً أو يصرف به عنه شراً إلا العمل.**

أيها الناس، لا يدعي مُدَعٍ، ولا يتمنى مُتمنٍّ، والذي بعثني بالحق لا ينجي إلا عمل مع رحمة ولو عصيت لهويت، اللهم هل بلغت».

ثم نزل فصلى بالناس صلاة خفيفة ودخل بيته.

وجاءه بلال والمرض قد اشتد به عند طلوع الفجر فنادى للصلاة، فقام ﷺ وهو لا يستقل على الأرض من الضعف، فأخذ بيده علي عليه السلام والفضل بن العباس فاعتمد عليهما، ورجلاه تخطان الأرض من الضعف، فلما دخل المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب فأومأ إليه أن تأخر عنه، فتأخر وقام ﷺ مقامه، وابتدأ الصلاة.

فلما انتهى انصرف إلى منزله واستدعى أبا بكر وعمر وجماعة ممن حضر المسجد من المسلمين ثم قال: ألم آمر ان تُنَفذوا جيش أُسامة؟! قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فلِمَ تأخرتم عن أمري؟ فقال أبو بكر: إنني كنتُ خرجتُ ثم عدت لأجدِّد بك عهداً.

وقال عمر: يا رسول الله، لم أخرج لأنني لم أحب أن أسأل عنك الركب. فقال ﷺ: انفذوا جيش أسامة، انفذوا جيش أسامة وكرر ذلك ثلاثاً، ثم أغمي عليه من التعب ومما لحقه من الأذى لتجاهلهم أوامره.

ومكث فترة من الزمن مغمى عليه فبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه وابنته عليها السلام ونساء المؤمنين وجميع من حضر.

---

(٢) الارشاد للمفيد: ص١٠٠.

ولما آفاق نظر إليهم وقال: ائتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً، ثم أغمي عليه، فقام بعض من حضر يلتمس دواة وكتفاً فقال له عمر: ارجع، فإنه يهجر!! فرجع، فلما أفاق قال بعضهم: ألا نأتيك بكتفٍ يا رسول الله ودواة؟ قال: أبعد الذي قلتم!! لا، ولكني أوصيكم بأهل بيتي خيراً، واعرض بوجهه عن القوم فنهضوا.

وواضح أن الكتاب الذي أراد أن يكتبه لا يعدو أن يكون تأكيداً لما صرح ولوح به مراراً من قبل بخصوص استخلاف علي عليه السلام.

وكان يعلم النبي ﷺ بأنه لا قيمة لكتابه عند هؤلاء بعد الذي قالوا.. بل لو كتب لهم عشرين كتاباً سوف يحورون ويؤولون مضامينها بما يتفق مع مصالحهم، وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك، وهذا هو الذي دعا النبي ﷺ إلى عدم الكتابة حينما أفاق.

وفاة النبي ﷺ:

اشتدت وطأة المرض على رسول الله ﷺ في اليوم التالي، وحُجب الناس عنه، وكان علي عليه السلام لا يفارقه إلا لضرورة، فلما حضره الموت قال له: ضع يا علي رأسي في حجرك فقد جاء أمر الله تعالى، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك، ثم وجهني إلى القبلة، وتول أمري، وصل عليَّ أول الناس، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، واستعن بالله تعالى.

فأخذ علي عليه السلام رأسه ووضعه في حجره، ففاضت نفسه الشريفة وهو إلى صدره عليه السلام وكانت وفاته يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة ١١ للهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ولم يحضر دفن رسول الله ﷺ أكثر الناس! لما جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر في أمر الخلافة[1].

(٣) راجع الارشاد للمفيد: ص ١٠١.

للمطالعة وإنك لعلى خلق عظيم

أخلاقه ﷺ في أسرته / ٢

الأب المثالي:

كان رسول اللّه ﷺ يعامل أولاده بكل عطف ومحبة ورفق ولين، وكان يقول ﷺ: "أولادنا أكبادنا". وكان يسعى في تربيتهم وتعليمهم آداب الإسلام.

فقد روي: أن فاطمة عليها السلام كانت إذا دخلت على رسول اللّه ﷺ قام لها من مجلسه وقبّل رأسها، وأجلسها في مجلسه، وإذا جاء إليها لقيته، وقبّل كل واحد منهما صاحبه وجلسا معاً.

وكان يقول ﷺ: **"فاطمة مني وهي قلبي وهي روحي التي بين جنبي، من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى اللّه"**.

وكان الحسن والحسين عليهما السلام وهما صغيران يعلوان ظهر النبي ﷺ وهو ساجد يصلي فكان يطيل سجوده حتى ينزلا عن ظهره، أو ينزلهما برفق.

وروي أن النبي ﷺ قبَّلَ الحسن والحسين عليهما السلام فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الأولاد ما قبلت واحداً منهم قط!

فغضب رسول اللّه ﷺ حتى تمعر لونه وقال للرجل: إن كان اللّه قد نزع الرحمة من قلبك فماذا أصنع لك.

وعن بريدة قال: كان رسول اللّه ﷺ يخطب على المنبر فجاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول اللّه ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: ﴿**انما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ الأنفال/ ٢٨.

وفي رواية أخرى انه قال: أولادنا أكبادنا يمشون على الأرض.

وعن أنس بن مالك قال: رأيت إبراهيم بن رسول اللّه ﷺ وهو يجود بنفسه (ينازع الموت) فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال: **"تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون"**.

وكان رسول اللّه ﷺ يعطف حتى على أطفال الآخرين، ويعاملهم بمنتهى الرفق واللين ويمنحهم شخصية قوية ويحتضنهم ويمسح على رؤوسهم، ولا يحقر أحداً منهم.

فقد روي: أن النبي ﷺ كان يؤتى إليه بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة أو يسميه، فيأخذه فيضعه في حجره إكراماً لأهله، فربما بال الصبي عليه، فيصيح بعض من يراه حين

يبول فيقول ﷺ: **"لا تزرموا بالصبي، فيدعه حتى يقضي بوله، ولا يظهر انزعاجه أمام أهله من بول صبيهم، فإذا انصرفوا غسل ثوبه"**.

وكان ﷺ إذا قدم من سفر تلقاه الصبيان، فيقف لهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم، فربما يتفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض: حملني رسول اللّه ﷺ بين يديه وحملك أنت وراءه، ويقول بعضهم: أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم.

ومما يبين مدى إهتمام النبي ﷺ بالأطفال ومنحهم الشخصية الكاملة واحترامهم، ما رواه الإمام الصادق عليه السلام قال: **"عطس غلام لم يبلغ الحلم عند النبي ﷺ فقال: الحمد للّه"**.

فقال له النبي ﷺ: **"بارك اللّه فيك"**.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
■ **المقدمة**	٥
■ **السيرة النبوية ومصادرها الأصيلة**	٧
■ **حالة المجتمعات العربية قبل الاسلام**	١٣
١ ـ الوضع الديني	١٣
٢ ـ الوضع السياسي	١٤
٣ ـ الوضع الاجتماعي	١٥
٤ ـ الوضع الأخلاقي	١٦
العوامل المساعدة على انتصار الاسلام	١٨
■ **ولادة ونشأة النبي الأعظم ﷺ**	٢٢
نسب النبي	٢٢
رضاعه	٢٢
النبي في كفالة جده	٢٣
النبي في رعاية أبي طالب	٢٣
السفر الى الشام	٢٤
الزواج من خديجة	٢٥
مهنته قبل البعثة	٢٥
■ **مكانة النبي ﷺ قبل البعثة**	٣٠
حلف الفضول	٣٠
تجديد بناء الكعبة	٣٢
■ **البعثة النبوية**	٣٦
■ **ما بين البعثة والهجرة ـ ١**	٤٢
الدعوة وتحديات قريش	٤٢
ردود فعل قريش	٤٥

■ **ما بين البعثة والهجرة ـ ٢** ٤٩
مواجهة تحديات قريش ٤٩
الهجرة الى الحبشة ٤٩
الخروج الى الطائف ٥٠
بيعة العقبة ٥٠
■ **الهجرة الى المدينة** ٥٥
دوافع الهجرة ٥٦
سر اختيار المدينة ٥٧
■ **بناء الدولة ـ المجتمع السياسي الاسلامي** ٥٩
■ **الصراع المسلح مع قريش ـ ١** ٦٧
أ ـ السرايا الاولى ٦٨
ب ـ معركة بدر ٦٩
أسباب الانتصار ٧١
■ **الصرع المسلح مع قريش ـ ٢** ٧٥
ج ـ معركة أُحُد ٧٥
أسباب الهزيمة والدروس المستفادة ٧٩
■ **الصراع المسلح مع قريش ـ ٣** ٨٣
د ـ معركة الخندق ٨٣
هـ ـ صلح الحديبية ٨٥
■ **الصراع المسلح مع قريش ـ ٤** ٨٧
و ـ فتح مكة ٩٣
■ **الصراع مع القبائل المشركة الأخرى** ٩٣
غزوة حنين ٩٩
أوطاس ٩٩
حصار الطائف ١٠٠
■ **الصراع ضد اليهود ـ ١** ١٠١

أسباب عداء اليهود للاسلام ١٠٦
اليهود في مواجهة الاسلام ١٠٧
موقف النبي من اليهود ١٠٩
■ **الصراع ضد اليهود ـ ٢** ١١٣
الحروب الشاملة ضد اليهود ١١٣
أ ـ غزوة بني قينقاع ١١٣
ب ـ غزوة بني النضير ١١٤
■ **الصراع ضد اليهود ـ ٣** ١١٩
ج ـ غزوة بني قريظة ١١٩
د ـ معركة خيبر ١٢١
هـ ـ يهود فدك ١٢٣
و ـ يهود وادي القرى وتيماء ١٢٤
■ **المواجهة بين الاسلام والجبهة البيزنطية ـ النصرانية** ١٢٧
معركة مؤتة ١٢٨
غزوة تبوك ١٢٩
نتائج وملامح الانتصار ١٣٠
■ **حركة النفاق في العصر المدني ـ ١** ١٣٥
الأساليب العدائية للمنافقين ١٣٦
■ **حركة النفاق في العصر المدني ـ ٢** ١٤٢
موقف النبي ﷺ من حركة النفاق ١٤٢
■ **وفاة النبي ﷺ** ١٥٠
حجة الوداع ١٥٠
بيعة غدير خم ١٥٠
جيش أسامة ١٥٢
الوصية الأخيرة ١٥٤
وفاة النبي ﷺ ١٥٥